طير الحمام

طه صالحي

الإهداء

إلى محمد ياسين داودي

'' أنا رفيقكم الوحيد في قبو الخنازير هذا وأنتم رفاقي، فتعالوا لأخبركم عما ألم بصديقكم البائس، واعتبروا بما أقول فَعَلّ اللهَ أن يُجنبكم ما ابتلاني به من مصائب الدهر، أحدثكم عن سنيني العجاف فهل أنتم مستمعون؟ لا! أنتم لا تسمعون، ولإن سمعتموني فهل أنتم مجيبون؟ ولإن فعلتم، أَفَلِمِثلكم ما لِمثلي فتعقلون أو تفهمون؟ ولإن كان ما لاينبغي أن يكون فما عساكم إن أردتم الرد تقولون؟''.

المؤلف.

" قد أتى علينا يا عزيزتي حين من الدهر، لم نكن شيئا مذكورا.. فإذ ذاك لم يكن لدينا وجود ولا تواجد ولا إنعام على أهل هذه الأرض ولا إكرام ولا شحناء بيننا ولا بغضاء ولا محبة ولا كراهية، ولا أسماء. فمنّ الله علينا بنعمة من لدنه وفضل ونفخ في أجسادنا اللزجة يوم كنا في أرحام أمهاتنا من روحه فتنفسنا وطعمنا وشربنا. وماهي إلا أيام معدودة حتى وطأت أقدامنا الأرض على أجمل هيئة وأحسن تقويم وأرفع مقام وأكرم تفضيل وسُمّينا بخير الأسماء التي كتب الله لنا فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه وقدّره. الله الذي خلقكِ وصوركِ وحسّنكِ على خير هيئة وجمّلكِ وكتب لي لقياك في يوم من أيامه المباركات علي، وأراد لي مفارقتك في يوم من أيامه المنحوسات علي. أوتذكرين؟ في المكتبة كان أول لقاء لي بك.. أشتاق إليك ولتلك السنون التي صيرها الدهر ضبابية لا يرى من خلالها الناظر سوى صور ومواقف وأقوال وأفعال لكل ما يتعلق بما كان يحب ويفضل. لكن.. أيتها العنيدة الجافية الحمقاء، كان ينبغي عليك انتظاري عند موقف السيارات فلم تفعلي، آه لو كتب الله عكس ذلك، كانت ستتغير الأمور لأفضل مما هي عليه الآن. سنعيش كما تريدين أنت منا أن نعيش، جار وجارته، صديق وصديقته، زميل وزميلته، محب وحبيبته.. أي شيء تفضلين، لا بأس، سأقبل بأي عرض يكون.. لقد صيرتني بصمتك الطويل وحيدا، ضائعا في فراغ لا متناه تملؤه هتافات من الماضي، صور منه، مواقف، أحاديث، ذكريات.. نعم ذكريات.. لا زالت هذه الأخيرة تملكني كل صباح وكل مساء حتى صارت جل حياتي، فهل تذكرين شيئا منها؟ مما خُطّ بقلم خشن في هذه الأوراق المكومة المبعثرة التي أخرجتِها لتوك من قوارير جمعتِها من شاطئ البحر؟

- ما هذا؟

- أي شيء هو؟

- الذي بين يديك

- كتاب كما ترى!

- هل أنت مريضة يا آنسة؟

- عفوا!

- صوتك!

- ما بال صوتي؟

- رقيق جدا! كل غريب يعتقد أن بصوتك خطبا ما عندما يسمعك تتكلمين!

نظرت إي مباشرة بنظرات تعجب وهي تهز رأسها.

- خاصة الغرباء المتطفلون الذين يجلسون دون إذن ويتحدثون فيما لايعنيهم.

- أنا غريب طيب أطمئن على صحتك. لا شكر على واجب.

- يبدو أنك تحاول التقرب بطريقة سخيفة!

أدارت وجهها ناحية الكتاب.

- لازلت أبحث عن طريقة أفضل

وابتسمتُ

- لا تتعب نفسك

- أهذه نصيحة؟

قالت بنبرة غضب يكسوه شيء من الحزن

- ماذا تريد من كل هذا؟

- لا شيء! أنت زميلتي في الفصل و.. يبدو أنني لا أنجح في تكوين صداقات عفوية.

- آه بالتأكيد.. لن تنجح ما دمت على هذه الطريقة من الكلام.

- أتعلمين؟ أنت تجيدين رفع المعنويات جيدا.

لم ترد.

-لم أنت متضايقة على أية حال يا آنسة..؟

- هدير

- هديل؟

- هدير

- آه.. هدير

- لستُ بمزاج جيد يا سيد.

- مراد

- لَم أسألك عن اسمك!

- حسنا لم تفعلي! ولكنك عرفته الآن على أية حال. أليس الوقت متأخرا؟ فقد بدأ الدوام بالفعل.

- يمكنك الذهاب.

- إلى اللقاء مع عقوبات نائب المدير. سأتغيب أيضا.

- أيضا؟

في الحقيقة لم أتغيب، ولست ممن يفعل ذلك عادة. وبعد أن اِصفرت أوراق الأشجار المرتفعة السيقان المنتشرةُ على ضواحي مدينة العلوم بفعل أنفاس الخريف الأولى أذعنت السماء أن تنزل من خيراتها غيثا نافعا شديد الرياح صباح آخر خميس من شهر تشرين الأول يوم تحدث مدرس الفلسفة عن تعاريفه التي يحاول تلقيننا إياها دون جدوى.. قال أن الإنسان لا يتعدى في جوهره أن يكون تركيبة غير متناسقة من مفاهيم وتعاريف تختلف من شخص لآخر، قد صُقلت هذه الأخيرة بفعل المحيط الخارجي منذ نشأته الأولى. وأن المشاعر التي تحوم من حوله ليست سوى نتاج لترجمته الخاصة لما يدور حوله من أحداث وصور ومواقف. تحدث عن علاقات الإنسان مع بني جنسه ورؤية كل منهم للآخر وقد توصل في نهاية مقالته السخيفة أن البشري لا يمكنه التواصل بشكل كامل مع غيره حتى وإن حاول ذلك باعتبار أن هذه المحاولات فاشلة من بدايتها وهي التي ترتكز على مفاهيم متعددة لم تعمم بعد على كافة البشرية ولن تعمم أبدا. لذلك فإن فهم الإنسان لغيره بشكل كامل لن يحدث مطلقا، وستبقى عشرات النقاط العمياء غيبية إلى الأبد ولعل الجهل بهذه الأخيرة هو الدعامة التي ترتكز عليها البنى المجتمعية ككل.. أضاف أن كل محاولة للغوص في لب أي كان ستجعل الروابط بغض النظر عن طبيعتها تتلاشى، كأن أصل هذه الأخيرة هو التنافر. ليس وكأن القضية تعتمد على قوانين علمية بقدر ما هي بديهية وعملية.. كانت آخر كلمات مقالته ''كف عن المحاولة''.

أنا بالفعل لم أحاول حتى أكف عما لم أقم به أصلا! لا أحاول ولا أريد، إنما أدهشني رد صاحبة المكتبة، أعني هدير، حينما قلت في خضم مناقشة لم أكن أريد الخوض فيها أن مساعدة الإنسان لغيره وتضحيته من أجله تعود بالمنفعة عليه بطريقة ما. كأنني لم أرها قبل تلك اللحضات بأقل من ساعة إكتشفت أن لوني عيناها مختلفان، يمنى خضراء داكنة ويسرى زرقاء شفافة.

وجه شديد البياض به شيء من الحمرة. ليس بها شبه بالغربيات، هي عربية أصيلة كما أخبرتني مازحة من بعد ذلك، فلم أرد مناداتها بالغربية، ولم أحبذ أن يناديها أحد بمثل هذا. فحقا.. الفرق شاسع بين هذا وذاك. إنه بالنسبة لعاشق خيول كالمسافة بين فرس إنجليزية وأخرى عربية أصيلة فهو كالذي بين سماء وأرضها. أنا صادق بهذا، وجدير بالثقة حين يتعلق الأمر بالمقارنات بين ماهو جيد و ماهو مثالي.. أستطيع تمييز الفرس العربية حين يداعب النسيم شعرها بينما تسابق الريح بخفة ورشاقة، شعرها أيضا يداعبه بعض من نسيم يحمل قطرات مطر تمر من خلال نافذة قاعة المحاضرات المفتوحة. أتحدث عن صاحبة المكتبة، هو طويل حتى خصرها، رمادي مائل للبياض أو أبيض مائل للرمادي أو هو أسود مائل إلى البياض أو أبيض مائل للسواد أو هو خليط بين هذا وهذا وهذا أو هو أشبه شيء بذلك. إن تباين الألوان بهكذا طريقة باعث للبهجة حينما يكون بين إطارات صورة معلقة على إحدى جدران متحف، فلأي شيء يبعث حينما يتجسد في بشر ينطق بصوت رقيق جدا يوقن سامعه مع مرور الوقت أنه بمكانه المناسب تماما؟ إننا نتحدث هنا عن المثالية بمعيار بشري، عالم من التناقضات. هكذا بدت لي هدير من النظرة الأولى. أعني النظرة الحقيقية الأولى. العالم المتجسد في هذه الفتاة باعث للإعجاب، أو للإحترام أو للخوف أو ربما للمحبة.. يوما ما! من يدري؟

كانت بصحبة '' إيملي'' طوال بقية اليوم. لا أدري من أين أتت إيملي هذه عندما اردت محادثة صاحبة المكتبة بشأن مداخلتها. ولكني رايت نفسي ثالث ثلاثة غير مرغوب به. نادتها هدير بهذا الإسم. أكره صديقات الفتيات اللاتي أهتم لأمرهن.. لاأعني اهتمامي بأمر هدير أن بيننا رابطة من نوع ما أو ماشابه. ما زلت لا أعرف عنها شيئا غير اسمها. فقط وددت التحدث معها بخصوص مداخلتها لكن هذه البنت.. أقصد إيمي، من النوع الذي لا أحبذه.. فتيات شقراوات يلعبن دور الحارس الشخصي والسمسار.. عبارة عن جسر بأرض بسيطة يظن من بناه أن الجميع مجبورون على العبور من خلاله.. لن يعبر من خلال تلك الجسور إلا من يريدها ولا أعتقد أنني أريد المسماة بإيمي.

لطالما اعتبرت الحديث مع أي كان اعتياديا أو هو روتين يومي حتى تركت القرية وانتقلت إلى المدينة. وعندما حدث ذلك أعدت تشكيل معظم المفاهيم مرة أخرى بطريقة تلائم محيطي الجديد، أو ذلك الذي كان يوما ما جديدا.. حتى أصبح مملا فيما بعد.. ثم صار كئيبا بعد سنوات.. حتى عاد كأن لم تطأه قدماي يوما.

ومن قبلُ لم تعجب والدتي فكرةُ ذهابي لمدينة تبعد الألفي كيلومتر عنها.. لم تستسغها شقيقتي أيضا.. قالت والدتي أن ذلك يكفي، ''... واثني عشر سنةً دراسةً كفيلة بأن تجعل منك سيد العائلة.. سأزوجك أروى كما وعدتك، لقد تحدثت مع كمال في الأمر ولم يمانع.. لم يقل لا أو نعم، لكن أمها رحبت بذلك. وتستطيع العمل في المحجر إن أردت، لن أجبرك يا بني.. يمكنك العمل في أي شيء تشاء وعلك تحب التجارة.. فتلك بضع وعشرون نعجة فاعمل فيها كيفما تراه صالحا.. أما المدينة.. لن تقدر على العيش هناك..''. كنت أصغر من أختي بخمس سنين، وكانت وأمي من ترعياني، ولما زارتنا أم محمد ألحت عليها أن أرافق ابنها حتى ننهي السنة الختامية ودراستنا الجامعية معا، وإن كان من أثقال على أحدنا فسيرفعها الآخر عنه كلما كانت.. ناولتها هناء كوبا من عصير البرتقال، تلك الفاكهة التي أثمرت في أرضنا بكثرة.. لقد مرت عشرات السنين ولم يتبدل طعمها ولا شكلها ولا يوم حصادها.. لم تتغير على أصحابها مذ أنبتهوها الأرض. لم تفعل ذلك حتى حين جلبوا ماكينات الحرث والسقي وأدوية مضادة للأمراض والطفيليات.. بقيت أشجار بلدتي يا هدير وفية لأصحابها بالرغم مما فعلوا معها.. ولما أتت جماعة من رجال أعمال ومقاولين ومهندسين لموقع العمل عرضوا عشرة آلاف دينار على كبار البلدة مقابل حمولة مائة شاحنة حجرا جيريا على أن يتم قلع الصخور من طرف الأهالي فرفضوا وعندما تم عرض خمسة عشر ألف شتلة من شتلات البرتقال قيل '' الله على ما نقول وكيل'' وبدأ العمل في المحجر.

لقد حمل أولئك الرجال على أكتافهم من الصخر وبأسه ما قدروا على الصعود به خارج المحجر طيلة شهرين متتابعين ولم يتوقف العمل يوما واحدا حتى إذا أنهوا ما عليهم من الإتفاق أتى الغرباء بشاحنات محملة شتلات وتم توزيعها بالتساوي على كل من شارك في العمل من أهل القرية وانصرفوا تاركين وراءهم قرويين لم يعهد أمثالهم التعامل مع أهل المدن قد اختلطت عليهم أنواع البرتقال، الملوث منها والنقي. وانتشرت الأمراض من هذه الأشجار الجديدة إلى القديمة فغيرتها فتغيرت على أهلها فعاد أولئك المساكين بعد سنة أو سنتين صفر اليدين.. ولم يبق بحوزتهم إلا القليل، مما نجى.. مما يأتيني عبر رياح الجنوب عطره فيضحكني فينسيني، ويُنعيني فيبكيني..

هكذا بدأ الأمر، وعلى حالة من البؤس والفوضى انتهى.. أنتِ على دراية بهذا، صحيح؟ بالكاد يسعك الإنصات لكلماتي تلك الأيام فهل جُننتُ الآن كي أحدثك عن مثل هذا؟ ثم.. مالذي يسعني فعله الآن غير أن أكتب؟ وبعد كل هذا.. هل تصدقين أنه صار لي بعض الأصدقاء؟ أقسم على

ذلك.. قط تعود الدخول من فتحة النافذة الصغيرة حتى ينال نصيبه من الطعام وبعض العصافير خارجا.. شديدوا سواد الريش، الذين يتفاخرون بحريتهم أمام من سُلبت منهم. لكن، لا بأس.. أن يكون لأحدنا أصدقاء في قبو الخنازير هذا مئة عظيمة لذلك أقول لك يا عزيزتي أنه لامشكلة بالرغم من كل شيء. إنما مصيبة أحدنا أن يقارن بينه وغيره. ما يجعل الإنسان تعيسا هو قياس المسافة بين ما هو عليه وما يأمله وهل أنا إلا ما أنا عليه، وهل سواك يكون أملي.. فقط، أنت يا هدير شخص من الماضي.. من فترة بعيدة جدا قد اضمحلت بنيانها وزالت صروف الدهر عنها فما عاد لها وجود. على أنك تركت في جرحا غائرا عجز الأطباء عن إغلاقه وكلما آلمني جرحي عادت تلك الأزمنة إلى الحياة كي تعذبني في لحظتي كما عذبتني قبل ذلك بلحظة وكما ستفعل في أخرى..

آه.. يا هدير.. كان ينبغي عليك انتظاري عند موقف السيارات! لماذا لم تفعلي؟ أريد إجابة فقط. حتى رؤيتي إياك، أخبرك أنني أعفيك منها. إجابة مختصرة فحسب. هذا كل شيء. لماذا أنت صامتة هكذا؟ حتى الآن؟ إلى متى؟ هل تنتظرين موتي حتى تجيبيني؟ إذا كان الأمر كذلك فاعلمي أن الموتى لا يسمعون.. وهم لا يجيبون. لأنهم غير موجودين أساسا.. الموتى يا هدير الحمقاء يختفون كليا بعد نفَسهم الأخير. لماذا لا تريدين فهم هذه الحقيقة واستيعابها كالعاقلين؟ هم يختفون، ليس من هذا العالم فقط بل من كل شيء. لذلك.. أخبريني أرجوك، لِم أخلفت بوعدك يوما؟ لقد انتظرتك لساعات وأيام، لشهور وأعوام وإلى الآن لم تأتِ.. قبل أن أموت، قولي الحقيقة.. بل قولي أي شيء.. أنا فقط يا حبيبتي أنصحك. لأنه إذا مات أحدهم لن يعود بينك وهو رابط يجمعكما إلا ما شاء الله.. وعل الله لا يريد أن يجمعنا إلى الأبد. فالآن! هيا قولي؟ ألا تزالين صامتة للحظتك؟ أيتها.. أنت عاهرة بغيضة يا هدير ولو لم تكوني كذلك لأجبتني.. أصدُقُك القول يا ابنة أمي، لقد حادثت الموتى وناجيتهم من قبلك ملايين المرات فلم أتلق منهم شيئا وأكتب رسائل كل يوم إليهم لكنهم لا يردون على أي منها.. كيف لميت أن يتلقى رسالة؟ ستكون هذه الأخيرة مهزلة.. علها إن صادف وكان لها مكان في هذا العالم أن تعود تراتيل جنائزية يتلوها أهل التعاسة بكرة وأصيلا.. لذلك، حتى لا تندمي، قولي ما لديك واذهبي حيث تشائين وافعلي ما تريدين..

أنا آسف يا هدير. هل ناديتك بالعاهرة؟ أنت لست كذلك يا عزيزتي. بل نقية السريرة وطيبة القلب وصافية البدن والروح. ولست أنا من يأمرك أن تقولي شيئا أو تسكتي أو تبقين أو تذهبين فعلى كل حال.. لم يصبني جنون كامل حتى لا أدرك أنه ما من معنى من كل هذا..

لم أخبرك عن أروى، صحيح؟ ليس أنني نسيت الأمر أو تناسيته بل لأنك شخص مختلف عنها كليا.. تلك الفتاة لم تصدق قراري بالذهاب فظنت أنني أمازحها وعندما تبينت لها جديتي حاولت منعي فنهيتها وحين أصرت على ذلك هجرتها فلم أرها بعد يومي ذاك أبدا. لقد حلُمت تلك الصغيرة التي أكبرها بسنتين بحياة رغيدة معي ومستقبل واعد. وكانت سذاجة أهل القرى تغلب على حديثها ونظراتها وحركاتها وسكناتها.. تركتها باكية وقطعت حبل الوصال بيننا آملا بحياة مدنية أؤسس خلالها متحفا خاصا بي حيث يتجمع الناس داخله فيرون آثار من سبقوهم من الأمم.. آثرت بقائي، وترجتني لكن أحلامي السخيفة أصمتني.. قالت أن العمل في دكان العلف الخاص بأبيها يزدهر فمرحب بي هناك في أي وقت أشاء ويمكنني بيع بعض من نعاج أبي حتى يمكننا أن نتزوج بداية ولا بأس أن نقتسم نحن الإثنين وإياها وهناء البيت ريثما يسعنا بناء منزل جديد، ''.. هناك.. أترى؟ فوق التلة يا مراد سنستقر.. يمكننا إزالة كل ذلك الصنوبر.. هو سيُزال على أية حال.. وإن كنا نحن من يفعل ذلك فأبي لن يُلنع. علينا تسوية ذلك المنحدر.. وذاك أيضا..''. ولأنها حالمة وآملة ولأنني حالم وآمل، بين فينة وأخرى.. نظرة وأخرى.. إلتفاتة إليها وإلى السماء.. يتشكل ذلك العالم، المدينة تبرز أمام عيني ويسحرني ما حُدِّثتُ عنها على سذاجتي فأسمعها ولا أنصت.. ثم في النهاية مضيت في طريقي الذي كتب الله لي وخذلتها، فأنى لها أن تحزن على حالي؟ وكيف يسعها زيارتي ومواساتي بعد أن فعلت بها ما فعلت.. أروى ليست أمي لتبكيني لقطعي إياها ولم تكن كهناء لتزورني ضالة طريقها.. هناء!. تلك الأخت العزيزة التي حُرمت من الدراسة لا تجيد القراءة ولم تدخل المدينة يوما فكان حالها لما فعلَت ذلك ومن قبلُ معاكسا لاسمها. لقد ارتميت في حضنها عندما أتت، لم يشجعني خزيي وعاري أن أنظر إليها ولا أن أقول شيئا ولكنها رمت بسكين داخل أحشائي لما قالت كلماتها تلك باكية. '' لماذا فعلت بنا هذا يا أخي؟ نحن أناس مساكين.. لقد قلت لك لكنك لا تستمع لأحد، هذا المكان غريب عنا، ما كان عليك الذهاب من البداية..''. أنا آسف يا هناء ولقد طلبت مني بعد ذلك أن أعود للقرية فلأي شيء أفعل؟ ومالذي سأجده هناك بعد سنوات من الضياع؟ لقد مر ما قدره الله فما عساي أفعل؟ أأعود إلى الماضي؟ لو كان باستطاعتي فعل ذلك لأصلحت أخطاءً أعظم من هذا بكثير. ولعدت شخصا صالحا، لكن لو فعلت ذلك حقا لما تراجعت عن قرار الذهاب للمدينة. لقد وجدت ما هو أفضل من الريف هناك وأفضل من العالم بأكمله..

أنت يا هدير لم تعرفي شيئا من هذا أبدا حتى لحظتك هذه وها أنت الآن تقرئين كلماتي فمالذي تغير؟ بلى! تغيرت الكثير من الأشياء فما لبثتُ أن

أنهيتُ ما تبقى من سعادة في حياتي. لكن، صدقيني، لم أحسب نفسي للآن شخصا ساذجا وغبيا لمّا حدّثتُ نفسي عنك مدة طويلة. الأمر أشبه برصاصة استقرت في الدماغ، لا يسع المرء استيعاب وفاته حتى يجد نفسه في عالم الأموات. أو هو عبارة عن سِنَةٍ، بين اليقظة والنوم! ليس بمقدور أي كان توثيق لحظة الغفوة تلك. كأن العقل ينسحب في ذلك الوقت حتى يترك القلب ورعيته يتصرفون كيفما يشاؤون ثم حينما يعود لمكانته بعد فترة يكون غير ذي أهمية. هكذا أحببتك أول مرة مثلما لم أحب امرأة من قبل، كأنني لم أحب شخصا يوما. منذ تلك اللحظة بدأت حكاية سعادتي ولازمتها حكاية بؤسي وألمي بعد فترة قصيرة. لقد تركتِني وسافرت لمكان بعيد جدا!.. لحيث لا يسع أمثالي من أهل القرى اللحاق بك. كأنك كنت قادرة على صنع عالمك لوحدك دون إذن من أحد أو مساعدة منه.. لم يكن فيك شيء واضح أمكن للمرء من خلاله بناء صورة متكاملة عنك. كنتِ لغزا صعُب علي حله ولا زلت. كأنك لا تنتمين لما أنتمي إليه أنا.. ساكنة الملامح، جامدة العينان.. آه.. تلكما الذابلتين! اللتان سحرتاني وإن فقدتا شيئا من نورهما.. لقد آثرتِ الرحيل وتجاهلتِ ندائي وأخلفتِ بوعدك. كأنك لم تعرفي أنني أحببتك، أنني أضعت حياتي لأجلك، أنني قبل هذا وهذا أفكر كل ليلة من ليالي الطوال بإخبارك أنك أفضل هدير في هذا العالم.. في ذلك الزمن الغابر حيث أمكنني أن أراك كل يوم وأرعاك بعيني فيسعني الهمس في أذنك أنك كاسمك، صوت عذب ومحبوب، وباعث للطمأنينة، وللإرتياح، وللبهجة ولأخبرك أنه باعث للمودة والحب.

أسمعتِ بتلك السمفونية الجنائزية؟ آه! كدت أنسى! لم أخبرك عن بقيتها، لم تكن البنت صماء فتتجاهل أمها، هي فقط لا تريد إخبارها بالحقيقة.. لماذا؟.. لأن الجميع يعرفها مسبقا.. فهو إذن ناموس لا يتغير وقانون يسوق البشر دوابًّا إلى ما ينبغي عليهم العبور من خلاله.. ''.. آه يا ابنتي! هلا انتظرتي حتى يعود أبوك إلى الديار؟!'' تلك المرأة لم تكن مجنونة أيضا. إنها فقط.. إرهاصات الجنازة اللانهائية من العذاب والفقد والحنين.. أنت تفهمين ما أعنيه أليس كذلك؟ لوقت قريب فهمت ما كنت تقصدين.. أنت أيضا لم تكوني صماء، إنما هذا حال أقوام آخرين.. يسمعون ولا يجيبون ولإن أجابوا ونطقوا فلا صدى لأصواتهم ولا تتلقاها سوى أطياف وأشباح. ولايسمعهم غير أرواح.. وبعض من رفات أموات.. وأحياء في منامهم حالمون.

لقد طُبعت صورتك الحسنة داخل مخيلتي فلم ينتزعها ليل أو نهار أو يقضة أو نعاس أو فرحة أو حزن أو أي شيء.. وصدقيني أيتها الحمقاء، لا زالت مكانتك في قلبي كما هي ولكنك لا تفهمين. ولا زلتِ تلك الياقوتة التي تمنيتها دائما ولا أزال للآن بين هذه الجدران الإسمنتية أتمنى لو ترتسم

صورتك في السماء فأراها من خلال النافذة الضيقة لتؤنسني في وحدتي، وإن كان طيفا منك، أو روحا.. أو بعضا من روحك.

حدثت نفسي عنها طويلا وأردت إخبارها بمحبتي بشوق وبالرغم من معرفتي المسبقة ألا معنى من كل ما أفعله لكنني أحببت فكرة إخبارها على طريقة تليق بها.. هدير! أحبك!.. لا لا لا.. هدير! أنا معجب بك مؤخرا.. لا ليس هكذا. لم يمض على لقائك بها سوى يوم.. لا بأس. هدير! ذاك اسمك على ما أظن. إنه اسم جميل. مثل صاحبته تماما. أحب كل ماهو جميل.. أنت أحمق! ستبدو أحمقا هكذا! هدير هل تدخنين؟ هذا لا يمكن! مالذي يمكن قوله لفتاة كتلك؟ إنها الواحدة فجرا ولم أنم بعد.. لقد أحببت تلك الفتاة بعد أيام من لقائي بها. تماما مثلما أعجبت بجمالها خلال ثواني. وددت ببساطة مصارحتها بحبي لها وليكن ما يكون. لا سألتقي بها غدا وأبعد عنها تلك الشقراء وأخبرها. سأقول لها، مرحبا هدير. لقد حفظت اسمك بسرعة. أنا مراد إن نسيتي إسمي. هل تعلمين أن أمرك يهمني؟ أنت جميلة اليوم أكثر من أي وقت مضى.. هل أنت متفرغة للتسكع مساء الجمعة؟ هنالك أمر ينبغي علي مصارحتك به.. إنه لشيء مهم ينبغي عليك معرفته أكثر من أي شخص آخر...

انفجر ''عامر'' ضاحكا عندما أخبرتُه بما ينبغي علي قوله لها وقال أنها ستسخر مني لأن كلامي يدل على ضعف شخصيتي..لكن ماعساي أقول لها؟ أهلا هدير مارأيك لو نذهب لشقتي! سنتزوج الليلة؟.. ضحك ثانية..

إنتقل عامر للمعهد. التقيت به قبل شهر من ذلك وصادف أنه يقطن بالعمارة ذاتها التي أسكن بالطابق الخامس منها. قال أنه سينتقل لفصلي بعد أسبوع. سألته من أي منطقة أتى فابتسم ابتسامة بطريقة لم أفهمه بها وقال أنه أتى من حيث لا يمكن لبشر الإطلاع على ذلك.. إنه لأمر غريب أن يجيبك أحدهم بهذه الطريقة. مع ذلك لم أعر لكلامه انتباها.

شعرت فقط أنه لا يريدني أن أعرف. لعله أتى من أحد الأرياف. لكن بصراحة لا أراه ريفيا بالنظر لطريقة كلامه وتصرفه الأقرب لعاداة أصحاب المدن منه للقرويين.. ربما أتى من مدينة أخرى. لا أدري.. لكن مالذي يجعل شخصا ينتقل إلى مدينة تبعد عن مواطن العمران الأخرى مئاتي كيلومتر أقل تقدير. لو انتقلت معه عائلته التي لا يتحدث عنها إطلاقا لفهمت الامر ولكن أن يكون لوحده فلا بد أن يكون للعملة وجه آخر ستنكشف قريبا.

قال لي ذات مرة أنه ينبغي علي ملأُ حصّالة الفتاة قبل مصارحتها بمشاعري. ذلك أنهن يعشقن العطاء كثيرا.. وينبغي علي الدفع لأنال حصتي. يقول أن

كأسا من العصير يفي بالغرض. يجب أن تضع الكأس على الطاولة قبل وضع مرفقيك على الأريكة والكلام.. دائما ما يكرر عبارته هذه.

أما أنا فمثلُ هذه الشعارات لا تغريني. عامر يشتري الكؤوس دوما ويضعها بين يدي عاهراته ثم ينطلق في الحديث متجاوزا أبعاد الكلام حتى يصل إلى مبتغاه الذي يصبوا إليه. عل بين طيات كلامه نوعا من المنطق لكنه لا يطبَّق بالتأكيد على جميع بنات حواء. فيهن من النساء من تهوى المال، فيهن من تهوى الكلام، التكبر.. ومنهن من لا يفهمها بشر على أرض خالقها غير المجانين وفيهن من تعذب هاويها. لكن، فيهن هدير أيضا. آه.. تلك المخلوقة العجيبة، الياقوت نادر وبين بني البشر أندر. إنها.. هذه الهدير.. يوم أحببتها زانت في عيني أكثر، وارتفع مقامها في قلبي فلم يعد لبشر في تلك المضغة مكان سواها. وددت التقرب منها بعد أيام من لقياي بها في المكتبة. وحقيقة، صرت أتابع كل حركاتها وسكناتها وجلوسها ووقوفها وكلامها ونظراتها.. بدأت هذه الوردة بالتفتح بين جوانبي ثم كبرت وازدادت حُسنا فمنعت كل بشر من مشاركتها مسكنها. ويوما بعد آخر، صارت فتاة تدعى أروى كنت لأتزوجها شخصا من الماضي.. ثم يوما بعد تاليه صار لبنت مدنية غريبة مُحبّ لا يرى من الفتيات سواها ولا للحياة معنى لولاها ومناه في كل لحظة من تلك الأيام الطيبات رؤياها ولقياها. كان حبا ليس كأي حب. كان عشقا ليس له مثيل، كنت سعيدا، طيرا محلقا تنمو أجنحته كلما تذكرها.. كنت حرا.. أهذا ما كنت سأحرم منه؟ لو لم آتي للمدينة لما عرفتك يا هدير. كيف ستكون حياتي لو لم أرك؟ كيف؟

وقفت بجانبها لحظة فراغنا من الدوام الصباحي. أردت محادثتها بالرغم من تواجد الغريبة الشقراء في الأرجاء.. لمحتها وقد خيل إلي أنها في حالة تأمل وهي تحدق بغابة الأرز الكثيفة خلف سور المعهد.

- إنه مكان هادئ أليس كذلك؟

ردت

- بالفعل!

وتنهدت تنهيدة عميقة

- هل تودين زيارتها؟

- يوما ما!

- لا يتعلق الأمر بزيارتها بل بمن ستزورينها معه.

أدارت وجهها ناحيتي مبتسمة فابتسمت لابتسامتها..

قسما، لقد كانت قمرا منيرا في وضح النهار.. يا إلهي، ما أجمل هذا الإنسان وأروعه! ما أجملها! يا للمبدع سبحانه. يا لِلخالق في كونه ما يوجِد. هذه البنت جميلة لدرجة غير معقولة. ليست تقليدية بل نادرة. إنها مختلفة عن غيرها من الفتيات في كل شيء. شعرها كثيف لكنه شديد الطول، ولونه.. لم أر مثله من قبل. لا بالأبيض ولا الأسود ولا الرمادي ولا شيء.. إنه كل شيء.. إنها كل شيء.. إنها هدير..

قالت

- نعم كلامك صحيح.

- تبدين سعيدة اليوم.

- هل أنا كذلك؟

- أعتقد ذلك.

- تعالي، المنظر من هنا رائع!

نادت هدير إيملي.

لما أتت هذه الأخيرة تيقنت أنني كنت منصفا حينما وضعتها في صف اللاواتي لا أطيقهن.

لما رأتني قالت مباشرة ملتفتة لصاحبتها مشيرة بإصبعها نحوي.. كالفتيات الصغيرات، المتكبرات، الحمقاوات.. هذا ما أظنه لحظتي هذه على الأقل.

- من هذا؟

- إنه.. مراد.. أليس كذلك؟

قلت

- نعم

نظرت الشقراء إلي بتأمل حتى قالت

- مراد... ممم... إذن!

- إذن؟!

- إنها محادثة فتيات.. وأعتقد أنك فهمت ماأعنيه.

- عذرا!

- لقد سمعتني.

- لم تكن محادثة فتيات قبل أن تأتي!

- أصبحت كذلك بالفعل

- ما رأيك لو تكفين عن لعب دور الزعيم هنا؟

لاحظت هدير أن نقاشنا يزداد حدة.

- ياجماعة.. أرجوكم اهدؤوا. لا داعي لهذا.

صمت ثلاثتنا هنيهة لأقطع ذلك الصمت بمضي نحو الشرفة فأتصنع التحديق بالغابة. يوجد بها كثير من شجر الأَرز والصنوبر والزان وأخرى لا أعرف نوعها.. وهي غابة جميلة.. الضباب في الأفق البعيد يفسد الرؤية مثلما تفسد إيملي حديثي مع صديقتها. إنها سُنّة ينبغي على الجميع الخضوع لها.. هنالك من خلق ربيعا للحب ورمزا للحياة وهنالك من خلق ليفسد كل ماهو جميل وهنالك من خلق ليكون بائسا.. اعتقد أن لكل شيء في هذا الكون صلة بشيء آخر. إنها مشاركة في أمر واحد.. نوع من الخضوع لقانون سماوي يجمع الكل تحت سقفه.

لقد كانت أول محادثة لي مع إيملي غير موفقة تماما وفي الحقيقة لقد كرهتها منذ أول مرة أراها فيها إذ شعرت بعدم الإرتياح لها. وقد صدق حدسي بعد تلك المناقشة. يقولون أنه لا يجب أن نحكم على أحدهم بالنظر لشكله وتصرفاته فحسب. إذ ليس كل من يشرب القهوة مثقف وليس كل من يدعي التأمل هادئ وفي االجمل ليس كل من يخيل إلينا أنه من نوع ما هو بالفعل كذلك حتى لو أراد منا ذلك.

أعمل في مجال التجارة. تجارة الأغنام.. الماعز.. إنه مكسب مغر بالنسبة لكبار التجار في السوق. ويعتبر مكسبا مرضيا بالنسبة لصغار التجار مثلي.. يقع السوق غرب المدينة بجانب مدينة الملاهي تماما ولا يفصلها غير طريق سريع وهو سوق مفتوح طوال أيام الأسبوع. حسنا، ليس تماما. قررت إدارة السوق المحلية فتح منصة تجارة إلكترونية بين يومي الإثنين والسبت وبذلك يتسنى للمستثمرين استثمار أموالهم في مثل هاته الأشياء. و يفتح السوق فعليا يوم الأحد ليأخذ كل ذي حق حقه فتنتقل السلع والأموال بين التجار والسماسرة...

لم أفهم السبب الذي جعل المجلس البلدي يشيد سوق حيوانات بجانب مدينة ملاهي ضخمة. إشتكى بعض التجار المحليين من الجلبة التي تحدث.. يقولون أنها ترعب الحيوانات وهي بالفعل كذلك. يتحدث المجلس البلدي وممثلوا إدارة السوق عن عملية بناء عازل صوتي بين السوق والمدينة دائما ولكنني لم أر شيئا من ذلك لمدة شهرين من الوعود الزائفة. وحتى لو تمكنوا من فعل ذلك فإن المحطة المركزية لقطارات الأنفاق تقع مباشرة تحت أرضية السوق. في الحقيقة ليست الجلبة هي السبب هذه المرة. فالأمر يزعجني شخصيا.. أتخيل كل مرة لو انهارت آلاف الأطنان من الدعامات التي تدعم أرضية السوق بسبب الهزات التي تحدثها عشرات القطارات. إنها لا تكف عن الحركة مطلقا. وبصرف النظر عن ملايين السكان بالمدينة فإن الليل يهجع أكثرهم. إلا أن القطارات لا تكف عن الحركة.

إنتقلت لعمارة بأحد أحياء مدينة العلوم قبل أن أنتقل للمعهد بأربعة أشهر. تقع مدينة العلوم شرق المدينة. وهي عبارة عن عشرات الأحياء التي يتوسطها مدرسة ومعهد وجامعة وعدد لا يحصى من العمارات والمكتبات وأسواق الكتب وبعض المبيتات للطلبة وأهل الأرياف المحيطة بالمدينة.

نظام المعهد بالمقارنة مع نظرائه في المدن الأخرى والبلدان المجاورة غير تقليدي، سمعت أن المدير العام للمعهد يشرف على مليوني تلميذ. إنه لأمر صعب بالنظر لضخامة المسؤولية. تنقسم البناية لعشرين قسما. كل منها مختص في دراسة مسلك. لقد كنت متخصصا في التاريخ. لا توجد امتحانات كتابية بالمعهد على الإطلاق! بل إن النجاح في سنة دراسية أو الفشل بها يعتمد على ما يتعلمه المرء فحسب ويرسخ في عقله.. الإمتحانات عبارة عن تقييم شفوي تديره لجنة مختصة من خمس أساتذة في كل قسم. أخبروني أن السؤال المتكرر هو '' مالذي تعلمته ورسخ في عقلك للآن؟ ''. ثم تتالى من بعد عشرات الأسئلة في جميع الميادين المتعلقة بالإختصاص. الأمر مخيف بعض الشيء خاصة وأن هذه آخر سنة دراسية لي قبل الجامعة.

لم يكن بمدينة العلوم دكان استطعت كراءه من أجل النعاج فأهل هذه الأحياء المجاورة للمعهد يرفضون فكرة تواجد هذه الحيوانات بالمقربة من مساكنهم ثم إن أقساط الكراء في مدينة العلوم بصفة عامة باهضة الثمن. لذلك لجأت إلى حي يبعد قرابة أربعة أميال عن المعهد. ثم في هذا الأخير وجدت ضالتي. دكان بمساحة مائة متر أضع به حيوانات تجارتي وسيارة قديمة كانت أقرب شيء لشاحنة صغيرة. ولحسن حظي فإن سكة الميترو تمر جانب حيي المنشود. كان بودي لو أسكن بهذا الحي لأكون أقرب الناس لما

هو ملك لي. إلا أنني أردت الإقتراب من المعهد. فإذا كنت بوقت فراغي زرت حيواناتي.

لقد وعدني ''عبد ربه'' أو من أناديه بالعم عبدو أنه سيعتني بهم.. أعفيته من الأمر ولكنه أصر.. ''.. أنت يابني تدرس ولا يتسنى لك رعايتها كل يوم. وأنا أكفل لك ذلك فوفر وقتك ومجهودك للدراسة..'' كان ذلك قوله عندما أخبرته أنني تلميذ. شكرته حتى كأنني أذكر نفسي أقبل شيخا في الستين من عمره من جبهته المتجعدة. بالرغم من كل ذلك فأنا أزورها كل يوم تقريبا.

إلتقيت بعامر صباح الثلاثاء بمقهى المعهد فأخبَرني أنه انقل لفصلي.

قلت له بينما لا يزال واقفا

- لا ندرس مساء الثلاثاء في العادة

- بشرى خير..

ابتسم عامر

- مالذي تنوي فعله إذن.

- ما رأيك أنت!؟

- يبدوا أن الجلوس بالمقهى كفيل بذلك.. إجلس، ألا تزال واقفا للحظتك؟

- الفتيات كثر. والمشهد جميل من هنا.

- هذه اهتماماتك في الغالب

- ما أخبار حبيبتك؟

وجلس

- ليست حبيبتي

- ستكون كذلك عما قريب.

- لهذه الكلمة وقعها بالفعل.

- ما أخبارها؟

- هاهي ذي!

إلتفت يمنة ويسرة ثم رأى فتاتين..

- واو! أعتقد أنك تحسن الإختيار.. جميلة! أهوى الشقراوات. أعتقد أنها غريبة! كم نحن متشردون ياصديقي! لكن معظم الشقراوات عاهرات! يجب ان تعرف هذا جيدا.

- ليست الشقراء. بل الأخرى، صديقتها..

- هل تعلم أنني سافرت إلى بلاد الغرب مرتين؟ وحبيبتك هذه نسخة مطابقة للأصل للفتيات الأوروبيات! أعطها كوب شامبانيا مجانيا وستقفز مباشرة فوق بطنك. إنها معادلة بسيطة! الكأس ثم الكلام ثم الفعل. الكاس يا صديقي الكأس.

- شامبانيا؟!

- من أجود أنواع الخمور

- أتشرب الخمر؟

كان يحدق بإيملي تعبر من أمامه ولم يعرني ولا هدير التي تسير بجانبها إهتماما. حرك يده التي تحمل كأس القهوة ناحيتها.

-هل تشربين شيئا يا أميرتي؟

أفزعني كلامه. إذ لم أكن من النوع المعتاد على مثل هذه التصرفات.

لم تعره إيمي إهتماما. فقط، نظرة احتقار تقوم بها جميع الفتيات.

- تريدين اللعب بالطريقة الصعبة هاه؟ بف.. عاهرة! قال كلمته الأخيرة هذه بصوت منخفض وأضاف:

أسف يا صديقي ولكن فتاتك الأوروبية هذه عاهرة. بل ومتكبرة أيضا. لا أقصد الإهانة ولكنك لا تحسن الإختيار. سأبحث عن واحدة أخرى من أجلك فلا تقلق.

- أخبرتك أنها ليست هي. بل الأخرى.

- الأخرى؟

- ألم ترها؟ صاحبة العينان المختلف لوناهما.

كانت الفتاتان تجلسان على بعد عشرة أمتار منا أو تزيد. تأملَهما جيدا قبل أن يشيح ببصره إلى كوب القهوة خاصته ليقول بصوت خافت

- أعرفها

- من هي؟

- حفيدة عمدة المدينة السابق.

- آه لقد أصبحت الأمور صعبة الآن.

- إنها من الأثرياء! لو جعلتها تحبك فقط لانتهى بك الأمر من أغنياء العالم.. سأكون المشرف على احتفال زفافكما حينها.

- آمل ذلك..

- ما كان اسمها يا ترى؟

- هدير..

- آه نعم..هديل الثرية. رائع بالنسبة إليك.

قال ذلك وهو يشير بسبابته اليسرى ناحيتي.

- بل هي هدير. وليست هديل.

- لا فرق.

- الفرق شاسع، الهدير خرير المياه والهديل تغريد الحمام.

- هل تفضل خرير المياه على صوت الحمام؟ أم المياه على طير الحمام؟

- لا أفضل شيئا على آخر بل إن اسمها هدير، هذا كل شيء.

- أيا يكن، لن تغير حبيبتك إن نُعتت بأي شيء.. لا تفزع، لا تزال ثرية أيضا.

- لا أعتقد أن لعمدة المدينة ثراء للدرجة التي تتحدث عنها. فهو في النهاية مجرد موظف لا يختلف كثيرا عن غيره اللهم ببعض مئات الدنانير.

- إنها يتيمة أبيويها. وقد توفي جدها قبل أسبوع من الآن تاركا لها وصية تتحصل بمفعولها على ملايين الدنانير وعشرات الشركات الكبرى.

- ما أدراك بكل هذا؟

- لدي مصادري الخاصة

- كيف؟

- القصة وما فيها أنني عملت فيما مضى سائقا لجدها العجوز.

- تأتي بالمعجزات كلما علمت عنك شيئا جديدا.

- الحياة تجارب

- وربما تأتي بالحكم أيضا كلما سمعت إطراءا من أحدهم..

قلت ذلك مازحا.

- تلك طبيعة البشر ياعزيزي، تلك طبيعتنا.

- أعتقد أنني فهمت شيئا بسيطا؟

- هل علي أن أسأل ماهو لتكمل كلامك؟

- لقد كانت حزينة ومتظايقة قبل أيام.. أعتقد أن موت جدها كان السبب.

- أراهن أنك تخزن كل قول أو فعل تقوم به فتاتك الثرية.

لم أعرفك بعد بشكل كامل يا عامر، لكنك شخص رائع.. شعرت أنك البشري الوحيد الذي يفهمني ويستوعب ما ألفظ به. أنك أثقل بكثير من اللامبالاة التي تُظهرها على ملامحك. آسف يا عامر، لقد خذلتُ نفسي مرات عديدة وخذلتك أيضا.. لم يكن بوسعي في ذلك الزمن فعل شيء حيال الأمر. لم تكن تلك البنت من نصيبي.. وبعد أن ابتعدَت عني حاولت الوصول إليها بيد أنها بعيدة جدا، لمسافة يمضي قاطعها ضعفي عمره ليدركها. أعتذر منك حقا.. لإن عاد الزمن للوراء، لمنعت الكثير من المآسي. لكن، لا بأس. لن تغير كلماتي هذه من الواقع شيئا.

بعض الناس تشعر أنهم مخيفون. ترى أنهم أكثر من مجرد شخص. أراهن أن لا أحد يستطيع النظر تجاه عينيها مباشرة. أعني هدير، يكون ذلك غالبا بسبب اختلاف لونيها. تحدثت معها إحدى المرات عن الحضارة الفرعونية وتأثيرها على مسيرة البشرية.. العجيب أنها تبتسم كلما تحدثَت معي عن موضوع ما.. وهي ابتسامة مصطنعة! لكنها رائعة. بالرغم من كل ذلك فإن بهذه الفتاة شيئا لا افهمه. ملامحها في معظم الأحيان ساكنة فعندما التفتَت ناحيتي وتحدثَت شعرتُ أنها تنظر من خلالي لا إلي.. جفلتُ للحظة ولم استطع حتى التكلم. إنها بشر فكيف يكون لها هذا الكم الهائل من الطاقة؟ ثم لوهلة شعرت أنها غير حقيقية بالمرة. كان الأمر مختلطا علي نوعا ما. صمتت وهي تنظر إلى عيني مباشرة فشعرت أنها لوحة فنية.

في النهاية مثلما شاء القدر أحببتها بصدق وذقت طعم الحب الحقيقي لأول مرة في حياتي. كيف لا وهي التي ما فتأ عقلي يتيه في خيالاته حتى تجذبه إليها راسمة داخله أجمل الصور مسمعة إياه أعذب الأصوات ساحرتَه سحرا دونه أي سحر.. وحتى لا ينفجر عقلي لشدة الذهول أخبرت '' محمد'' عن الفتاة التي أحببتها. لا أفهم غايتي من فعلتي جيدا لكن أعتقد أنه من الرائع لو علم بالأمر، ومحمد صديق طفولتي ورفيق دربي. هو لا يدرس التاريخ مثلي، إنما اختار التكنولوجيا تخصصا يبدع فيه كيفما يريد. وعلى كل حال، هو من مضيت معه من الديار لنستقر هنا.. أشعر بالطمأنينة أو بالفخر حين يعرف الناس أنني مغروم بهذه اللؤلؤة. وأشعر ببعض من الخوف أيضا عند تفكيري في إخبارها مباشرة عن مشاعري تجاهها.. أعتقد أن لدي فكرة أفضل! ماذا لو كتبت رسالة وأرسلتها إليها محدّثها عما أشعر به تجاهها دون أن تعلم هويتي.. ستتلقاها على بريدها الإلكتروني وسيكون صاحبها مجهولا بالنسبة إليها. ثم وكأي فتاة سيأخذها الفضول لأبعد الحدود فتشرع في البحث عن هذا الشخص الذي يحبها وبالآن ذاته سأكون لطيفا معها لأعبّد لها طريق البحث عني ثم حينما تعرفني، عندها لكل حدث حديث.

أرأيت يا هدير كيف كنت أفكر؟ أرجوك لا تضحكي لهذا فالأمر ليس مضحكا أبدا.. العيب الوحيد الذي أوجده خالقك فيك أنك لا تفهمين جيدا ولا تقدرين الناس من حولك ولا تأبهين لمشاعرهم كأن لم يَخلق هذا الأخير بشرا سواك. أعلمت الآن كيف كانت مكانتك عندي؟ من سيفكر لهذه الدرجة فيك يا ترى؟ المحب من يفعل ذلك. وبعد كل ما حدث.. لِم تركتني عند موقف السيارات القبيح ذاك دون حتى أن تودعيني؟ فإن كان ولا بد من الفراق، أيتها الغبية، أفلا كان من المعقول أن لو قلتِ كلمة وداع على الأقل؟ أتعرفين أنني فكرت في لحظة من لحظات حياتي البائسة بالأمر جيدا فاستنتجت أنني لم أكن أعني لك شيئا على الإطلاق؟ لكن لا بأس.. لم يعد الأمر مهما بعد تلك الحادثة. لقد أخبرتك سابقا أن ثمة في هذا الكون سعداء وآخرون تعساء فكيف لهؤلاء وهؤلاء الإلتقاء؟.. أنا مراد يا هدير، تذكري اسمك جيدا واسمي كثيرا. فالآن في حال أنا لا أحسد عليها وأنت في مكان لا يعلمه غير الله. أمَا والذي خلقك ما كنت قادرا على نسيانك يا ابنة أمك.. تذكري اسمك جيدا وفي ملإ لا أعرفه اذكريني. إفعلي ذلك فلذكراك كل يوم في قلبي وِرد وعلى لساني أوراد.. آه يا هدير، يا حبيبتي الحمقاء، كان ينبغي عليك انتظاري عند موقف السيارات ولم تفعلي، كنا سنعيش كأفضل ما ينبغي أن يكون لشخصين أو كما تريدين منا أنت أن نكون، صديق وصديقته، محب وحبيبته، جار وجارته، زميل وزميلته.. أي شيء مغاير لما حدث.. ألا ليت مافات يعود يا هدير ألا ليته فاعل ذاك والتكن روحي مقابلا. ألا ليتك لبَّيتِ وعدك يا عزيزتي.

كتبت إليها لما راودتني فكرتي تلك

" لا أدري كيف أبدأ وكيف أنتهي! هدير! هل ينبغي عليك معرفة صاحب الرسالة التي بين يديك؟ لا أعتقد ذلك فالأمر سيان بالنسبة إلي وحتى تبقى الأمور على حالها لبعض من الوقت كان لابد من تركي مجهولا بالنسبة إليك.

إشتياقي يزداد يوما بعد آخر بالرغم من كوني أراك كل يوم. ومحبتي تجاهك تزداد هي الأخرى. لكن هل يكفي النظر؟ هو بالتأكيد لا يكفي. قلب الإنسان وعقله عبارة عن ناظر ببيت له نوافذ بكل الإتجاهات نافذة تسمى العين وأخرى تسمى الأذن وأخرى تسمى الجلد ونافذة تسمى الأنف.. هل تصدقين أنك حديقة جميلة خلابة بذلك البيت يتاح جزء منها لناظر لم يسمح له بعد بالتحديق إلا من خلال نافذة العين.. أو لعلي استرقت النظر برهة من خلال نافذة الأذن فسمعت أعذب الألحان منك.. بهذه المرحلة أحبك حبا لا أستطيع وصفه.

هل من الحكمة إخبارك بهذا؟ ثم ماذا سأجنيه من رسالة بين يديك كهذه؟ هنالك ياهدير أشياء بحياتنا لا يمكننا تفسيرها أو فهم أسبابها ودوافعها أو فهم صلاتها بنتائجها فهي ومنها الحب أشياء معنوية غير موجودة في عالم المادة.. بالرغم من الخواص الضبابية لها، وهي التي لا نعرف بعالمنا إلا أسماءها فإنها تؤثر على حياتنا بشكل كبير. فيصبح المرء لا يكاد يفكر بشيء جميل إلا ذكر اسم محبوبه في باطنه، وبين ثناياه تولد أعذب الكلمات لوصف أغلى شيء يحسبه العاشق بحياته.. أعرف أنك لا تفهمين معظم ما أتحدث عنه هنا بيد أنك تدركين ما ارمي إليه، أليس كذلك؟ نحن لا نحب المادة وأعني بذلك شعرك النادر وعيناك وبشرتك.. الإنسان لا يحب هاته الأشياء أبدا إنما يعجب بها لا أكثر. حتى الرسام يمكنه رسم شيء جميل فلماذا نحب شخصا جميلا بينما نتوقف عند مرتبة الإعجاب بلوحة فنية تجسد الإبداع؟ ذلك أنه حسب درجة الإعجاب بتلك المادة التي تكوّن جسد الشخص والإعجاب بصوته وتصرفاته تكون درجة الحب لروحه..

واعذريني إن قلت أن كلامي ليس كاملا بعد، إذ أن الروح شيء لا يمكن لبشر فهمه واستيعابه، إنني معجب بكل ما رأيت فيك وسمعت منك ولست مدركا لشيء يسمى روحا بداخلك.. هل تعلمين ما أحب؟ شيئا مختبئا بين هذا وذاك. شيئا يسمى هدير. أحبك أنت كما ترين موقعك داخلك.. أحبك ذاتا.. ذاتا ترجمت بأبهى صورة رأيتها في حياتي لتتكلم

بأعذب صوت رن بأذني يوما فتسكن قلبي من أول لقاء.. لأحبها فتكون حبيبتي وعالمي وما أود التفكير به كل صباح وكل مساء.

أوتدرين يا هدير مالشيء الذي يريده المحب ممن يحب؟ بعض الناس يتمنون الزواج وهذه بالتأكيد غاية نبيلة أفضل ما ينبغي أن يكون عليه الحال. البعض الآخر يريد أن يلتقي بمن يحب حتى يملأ عيناه بحسنه وأذناه بصوته وقلبه بمحبته وحياته بالقرب منه وهنالك من يتمنى الهرب مع محبوبه إلى جزيرة خالية من البشر حتى يكون له لوحده فحسب وحتى يعيشا معا بسعادة وهناء إلى الأبد. هذه أماني أكثر الناس، فماذا عني؟ أتمنى شيئا أعلم أنه لا يحدث في العادة ولن يحدث أبدا، مع ذلك أعتقد أنه لدي الحق لأتمنى ما أريد.. كل يوم أراك بالمعهد، تقريبا، وكل يوم ألتقي بك، أكون سعيدا عندما تكونين موجودة، فاحبك في كل يوم جديد أكثر من محبتي في اليوم السابق، ولا تزال تجاهك تزداد حتى أهوى يومك ذاك ثم لا أفتأ حتى أحب المعهد بجدرانه البيض وأحب التلاميذ والطلاب وأحب الغابة، غابة الأرز ،وأحب المدينة ،فأحب بذلك كل شيء قريب منك أو شابهك باسم أو صفة أو جنسية أو جنس. أفعلمتي الآن ما أتمناه؟ أتمنى فقط ألّا تذهب هذه الأيام.. وذلك يكفيني.

إنها طريقة قديمة ولعلها مثيرة للشفقة بالنسبة إليك حينما تجدين بين يديك رسالة من أحد يحبك، تجهلين هويته، جبان لدرجة أنه لم يصارحك مباشرة. هي المفضلة لدي. ولسوف تدركين فيما بعد ياعزيزتي أنه من الإنصاف ترك الأمور على حالها.. وإلى ذلك الحين.. سلاما عليك مني وبركات من الله ورحمة".

بعد فترة قصيرة كتبت مجددا

" لقد أحبّت نفسي فكرة رائعة يا هدير وأنست بها كأنسي بك يوم رأيتك أول مرة، الحياة متشابهة أيامها وأحاسيسها. إن رحلتي لذلك الصرح بأرض الهند جعلت مني شخصا طموحا حقا، ولولا محبتي إياك لما اجتاحني شعور العظمة أمام ذلك المبنى الذي جعلنا جامدين. كجمود الشاه جاهان عندما أدرك لأول مرة أنه يحب زوجته لدرجة كبرى، أو كجموده لما أدرك أنها توفيت فعلا. يقولون أنه خرج بعد فترة حداده أشيب الشعر ولم يعهده معارفه قبل موتها على تلك الحالة وتخليدا لذكراها قرر بناء ما رأيناه مذهولين الأسبوع الماضي. إن تاج محل تحفة نادرة لن تجدي لها مثيلا أبدا. يرى الناس حسب خلفياتهم العلمية والثقافية الأمور من زوايا مختلفة فأما بالنسبة لمعماري فلن يسعه سوى رؤية ذلك التناسق بين قطع المبنى وضخامة المشروع ويبدأ بالتفكير في الطريقة الأنسب لرفع الحجارة إلى ذلك الإرتفاع

أو الطريقة المثلى للإبقاء على توازن المبنى من قاعدته إلى قبته. يختلف الأمر بالنسبة لرسام مخضرم مرهف المشاعر، سيقف على بعد كيلومتر من مدخل المبنى ويطبع ما تراه عيناه على الورق قائلا أن بياض تاج محل الرخامي يدل على صفاء قلبَي الملك المغولي وزوجته الحبيبة وأن خضرة الأشجار على جوانبه تدل على تواصل الألفة والمحبة بين هذين الشخصين ويوم تذبل هذه الأشجار سيعرف الناس أن حبهما انتهى في عالم آخر غير عالمنا. سيشرع مفكروا مناصري الطبقة العاملة عندما يتحدثون عن تاج محل باتهام السلطة الحاكمة آنذاك بهضم حقوق العمال من أجل شيء سخيف هو الحب أو ماشابه وسيطيل فلاسفتهم التفكير إلى أن يصلوا في نهاية الأمر إلى ملحوضة مفادها أن الحب هو أساس الخراب.

الحب ليس أساس الخراب، على الأقل هذا ما أعتقده في لحظتي هذه يا هدير. يا إلهي لم ألحظ أنني تحدثت عن هذه السخافات الآن، أعتقد أنك أعرف بمثل هذه الأشياء مني. لا أصدق أن الأسبوع الماضي مر بتلك السرعة، علني بالغت في مراقبتي إياك لشدة حبي لك.. حسنا ياهدير، لا زلت أتحدث عن السخافات للآن. ولكنك تعرفين، هذا ما يتحدث عنه المحب في الغالب، خاصة في القصص الشبيهة بقصة الشاه جاهان وزوجته المحبوبة. لا أدري ما نهاية كل هذا يا هدير وإلى أي محطة ستنتهي هذه الحكاية، أعني حكايتنا، نعم حكايتنا نحن الإثنين. أتخيل في كل مرة هذه النهاية المرتقبة، علها تكون بعد سنة أو سنتين أو عشر سنوات أو عشرين أو خمسين. من يدري؟ آه أجل.. لعلها تكون بعد خمسين سنة حين يكتب الله لي المضي نحو بلاد بعيدة جدا، والتكن شرقية والأكن شيخا عجوزا يرعى غنمه بين سهول التركستان الشرقية اللامتناهية. أظل على تلك الحالة لسنوات حتى تأتي سنوات عجاف تمسك السماء فيها غيثها وتجوع نعاجي فأقرر بيعها لتاجر صيني أهديه حماري العجوز. ولما أدلف لخيمتي أشعر بأن ساعتي قد اقتربت وأنا شيخ قد قارب الثمانين من عمره. سأمكث وحيدا في قبر تكرم أحد المارة أن يواريني في غياباته بعد أن وجد ورقة مكتوبا عليها :'' سعيد أنْ على هواك حييت... فرح أنْ على هواك أموت...''سيكون الأمر رائعا حينما يتأثر القراء بمثل هذه الحكاية الرائعة ويجعلونها مثلا يحتذى به في عالم العشاق، سنكون أبطالا حينها يا هدير. ربما يصير قبري من بعد ذلك وجهة للحجاج من المحبين، كمقام الشيخ الشاذلي، يتبركون به أو ما شابه.

في الحقيقة لا أتمنى لنفسي شيئا مأساويا كهذا بل أتمنى أن أقضي بقية حياتي بالقرب منك. أعني ما أقول حقا، وأقسم لك بذلك، إنني أحبك كثيرا ولولا

المعوقات لأخبرتك مباشرة ولكن تعلمين، وكما أخبرتك سابقا.. لكل شيء أوانه. إنما أعنيه من تخيلاتي هذه أن المحبة شيء مقدس، لا يعود على العالم في نهاية المطاف إلا بخير حتى وإن حدثت بسببه أشياء سيئة فإن ختام النهايات يكون دائما سعيدا.

أعتقد أنني أطلت عليك هنا وأنا أتكلم عن أشياء يعرف معظمها الجميع. لكنني آنس حقا بالكتابة وأشد الأنس أن تكوني موضوع كتابتي وأشد من ذلك أن أتحدث لك عنك داخلي.

إن الله خلقنا يا هدير ونحن أحوج المخلوقات لبعضها، جعل بيننا مودة ورحمة، فإن وجدت منبع هذه المودة والرحمة تجاهك شخصا لا تريدين فارفضي.. نعم يمكنك الرفض. لكن اجعلي للرفض مذاقا يستساغ ففي النهاية يا هدير، محور الإنسان قلبه.. أعتقد أنك تفهمين ما أعنيه جيدا، وداعا''.

قبل أسبوع من كتابتي لهذه الرسالة عدنا من بلاد الهند وقبل ذلك بأسبوع نظم قسم التاريخ بالمعهد مجموعة رحلات ميدانية تحت مسمى '' حظارات الشرق الأدنى بين أمسها ويومها''. أتذكر أشياء كثيرة رائعة هناك وأروع ما كان تواجد صاحبة المكتبة، حقيقة لا أتذكر شيئا مساء آخر يوم من الرحلة حتى أخبرتني إيملي بكل شيء فيما بعد.

كانت قد شارفت الشمس على المغيب لما جرني عامر بعيدا بضع مترات عن المجموعة العازمة على التخييم بإحدى ضواحي العاصمة لساعة ثم الذهاب للمطار والعودة لأرض الوطن قبل طلوع شمس اليوم التالي، حيث الحدود بين المدينة وصخبها والريف وهدوئه ورائحته العطرة. رائحة شبيهة بتلك التي تنبئ بمطر قريب. بجانبه شخص آخر المرجح أنه من أهل الأرض بالنظر للونه المائل قليلا للسمرة. أخبرني عامر أن لديه قهوة مميزة عليّ تجربتها.

- الشمس قاربت من مغيبها! إلى أين ستأخذنا في هذا الوقت، ثم من هذا الشخص بصحبتك؟

أشرت إلى الهندي الذي كان يحمل سلتين من سعف النخيل ممتلئتين بشيء لا أعرفه.

- أترى تلك الشجرة؟ سنمكث تحتها لبعض الوقت. وهاهي الحافلة، لن تهرب بعيدا. لا تخف

- من قال أنني خائف؟ لكن ماهذه القهوة التي تتحدث عنها؟ والآن؟

- نعم الآن، أين المشكلة؟ أنت لم تجربها من قبل وإن فعلت فسترى أنها صالحة لكل زمان ومكان.

- هل تتحدث عن قهوة حقا؟

- أجل، قهوة.

- هل أنت واثق؟ أشعر أن في الأمر لبسا يا عامر؟

- وهل سأسقيك سما يا رجل، ألا تثق بي لهذه الدرجة

- ليس هذا ما عنيته. لم تجبني بعد، من هذا الشخص؟

لم ينطق الرجل الذي يقلب نظراته بيني وعامر بكلمة. إلتفت إليه هذا الأخير ثم أعاد بصره ناحيتي وقال:

- لن أجبرك على المجيء يا مراد، إذا أردت تجربة القهوة جربها، إنها للمميزين فحسب فإن حسبت نفسك مميزا فتعال. ستجدني بالقرب من تلك الشجرة.

- إذا كان الأمر كذلك فسآتي

- هذا هو الكلام الصحيح، كان عليك قوله من البداية.

بدأنا نمشي متجهين ناحية الشجرة، والشمس قد غابت. قلت:

- كنت أتحقق فحسب

- من ماذا؟

- لا أدري. أنت شخص مجنون

- أتعلم؟ لقد غمزتني إحدى الفتيات أمس بالمدينة

- أخبرتني بقصتك هذه مليون مرة خلال ساعتين.

- لم أفعل

- بلى فعلت

- لا أتقن لغة أهل هذه البلاد ولولا ذلك لاستدعيتها للغداء.

- حسنا.. قصة مثيرة للإهتمام. أراهن بما لدي من مال أنك من غمزتها وليست هي.

- ستصير فقيرا عندئذ

- أنا كذلك بالفعل

- لا بأس، ستشعرك هذه القهوة أنك صاحب ثروة.. لا تفزع.

أحسست بأنها شديدة المرارة في البداية، ثم مالبثت أن صارت حامضة الطعم. وكأن برأسي آلاما ضعيفة أحسست كذلك بدوار خفيف، علّها ضربة شمس، الطقس بالمقارنة مع نظيره بالوطن شديد الدفء. يزداد الدوار شيئا فشيئا حتى تضاءلا. أتحدث عن عامر وصديقه الذي يشاركنا القهوة. لم أفهم شيئا مما يقوله هاذان الصغيران حتى عادا لحجميهما الطبيعيين بعد برهة من الزمن. شعرت أن موجة من الضحك الهستيري قد اجتاحتني حينما أخبرنا عامر أن دجاجة شكته للقاضي أو شيء من هذا القبيل.. الأمر كان مضحكا لدرجة جنونية.. بعد لحظات فكرت أن أطلب يد هدير للزواج، أنا أحبها وهي بالتأكيد تحبني و.. اتكأت على كتف عامر بينما كان يتمتم بأشياء لم أفهمها ويضحك ضحكات أبله مخمور. طلبت منه أن يسكب على يدي بعضا من قهوته السحرية حتى يسعني أن أغسل وجهي وشعري وأنظف ملابسي من بقايا أتربة إلتصقت بها إذ ليس من الأدب أن أطلب يد زوجتي المستقبلية وأنا متسخ، وقد فعل. شعرت أنني حزين جدا تلك اللحظة. لم أعرف السبب، علّه عامر الذي أخبرني أن عليه العودة لمجلسنا تحت الشجرة حتى يملأ الكوب قهوة. لا أدري مالذي جعلني حزينا لتلك الدرجة حينها. لقد كانت لدي رغبة في البكاء بشدة. بدأت بالإقتراب من الحافلة وجمعٌ من الناس حولها. بالتأكيد هدير بينهم، وحتى لو كنت بكاءا وحزينا فأنا سعيد لأنني سأتزوج الليلة. سقط كوب القهوة خاصتي من يدي، لعل هذا سبب حزني، أرجح أنه السبب. هممت أن ألتقطه لكنني لم أجده، أعتقد أنني أخذت حصاة مكانه. مضيت في طريقي وتضاءلت الحافلة ثم انتفخت ثم تضاءلت وكذلك فعل البشر من حولها، صاروا صغارا جدا، كان بوسعي رفسهم جميعا لكنني لم أرد. أنا شخص طيب ومسالم، ولن أدهس بشرا صغيري الحجم أشبه شيء بخنافس الروث الحمر. لا أعتقد أن زوجتي بينهم، لا أعتقد ذلك. هدير ليست خنفساء روث، ليست خنفساءا أصلا، إنها حبيبتي، وستكون عما قريب أما لأبنائي ولا أرضى أن يكون أبنائي خنافس، ولا أرضى أن أتزوج خنفساء من البداية. هدير رائعة وأرفع من هذا بكثير وعيب علي أن أنعتها بمثل هذا، لايمكنني على أي حالة أكون فيها أن أرى حبيبتي على تلك الشاكلة. أبدا، هذا مستحيل.. لماذا يقترب باب الحافلة الخلفي نحوي بهذه السرعة؟ ولماذا تتعالى الأصوات فجأة؟ وما شاني وهذا الباب الذي ارتطم بي دون سابق إنذار؟ لا أعتقد أن بيننا مشكلة، لا أتذكر ذلك، ليست لدي مشاكل مع الأبواب في العادة لكن هذا العاهر الحديدي المتفاخر يريد صنعها، وله ما أراد. شتمته، أمام الجميع، ودون حياء أو خجل. أنا شخص محترم لأبعد الحدود لكن عندما يتصرف معي هذا الوضيع بطريقته فسأرد بطريقتي أيضا، العين بالعين والسن بالسن والبادي

أظلم أيها الجبان قليل الرجولة. صرخت في وجهه ، قلت له أنه عاهر ابن بغي، وأن أباه مجهول هويته، واليفهم الأمر كيفما يريد. لن يضرني الأمر شيئا وتبا له. هو من بدأ العراك، وأنا سأنهيه. شتمته عشرات المرات وقد جذبني بعض الناس ممن شاهدوا المعركة. إبن الكلب هذا حام حول من لا يقدر عليه، وهو لا يعرفني بشكل جيد. ثم في النهاية انسحب من أرض المعركة ولولا من جذبني للقنته درسا قاسيا لن ينساه ما حيى.

صبيحة الأحد استيقظت لأجد نفسي داخل شقتي، وكان بي جرح يؤلمني بساعدي. تفوح من المكان رائحة خمر. لم أفهم شيئا، أنا الذي كنت بالأمس بأرض الهند فمالذي أوصلني لشقتي؟ فاجأني حذاء نسائي أرتديه. ومن فرط الصدمة نزعته بسرعة ورميت به بعيدا. لا أتذكر أنني لبست هذا الشيء، أفزعني الأمر، ولما انتبهت للحذاء المزركش الذي كنت أرتديه عاد وعيي بالكامل. الرائحة بالغرفة شديدة القذارة، هي بالتأكيد رائحة خمر.. لم يكن من الصعب علي إدراك أن قهوة عامر السحرية التي سقانيها أمس كانت خمرا. أنا شخص أحمق، ولم أشرب خمرا من قبل في حياتي، لكن عامر ذاك سقانيه. هوأخبرني أنها قهوة لكنه خدعني، كذب علي وضحك، إبن العاهرة.
يستغفلني هذا المخبول ويسقيني خمرا، لا يهمني خمره القذر فقد شربت منه ما يكفي وانتهى الأمر، لكن ما يغضبني ويجعلني أستشيط غضبا هو خداعه إياي. يبدوا أن ذلك المهرج لا يعرفني بشكل جيد ولا يفهم أنني أقتل من يضحك علي ويستهبلني. سأقتله بالتأكيد.

لما التقيت بإيملي بعد انتهائنا من الدوام الصباحي يوم الثلاثاء، أمام جناح الإنسانيات، أخبرتني أنني مهرج من الطراز الرفيع. كانت تنتظر شخصا ما.

بعد فترة أدركت أن إيمي لم تكن كما ظننتها أو لعلها غيرت أساليب تعاملها.. أصبحت أحادثها بين الفينة والأخرى، وكنا في البداية نتعارك لأتفه الأسباب لكن تضاءلت المشاحنات بيننا في الفترة الأخيرة إلى أنْ انعدمت تماما.

- إنها متلازمة نفسية يا إيمي، لا أكثر.

ردت

- متلازمة؟! لقد كنت مخمورا.

- مخمور؟

- آه.. كخنزير ميت

- هذا ليس صحيحا.

- يبدوا أنني رأيت منك ما لم تر من نفسك

- لست أنا من يشرب الخمر

- حسنا، لاداعي لأن تحرج نفسك أكثر من هذا.

- هل تنتظرين أحدهم هنا؟

أومأت برأسها إيجابا.

- حسنا، لقد استيقضت صباح الأحد دون أن أعرف مالذي حدث بالضبط

- ها أنت تعترف الآن.

- لا أدري مالذي حدث معي. أنا جاد في ما أقول.

- بينما كنا نعد الطعام مساء السبت أتيت كالمجنون حاملا حذاءك تبكي وتهذي بكلام غير مفهوم ثم اصطدمت بباب الحافلة. مكثت تثير الشغب طوال ساعة حتى فقدت الوعي بعد أن رميت بحذائك من نافذة الحافلة. كان ختاما مثاليا لمشهد مضحك جدا.

- للحذاء النسائي تفسيره المنطقي الآن.

- حذاء نسائي؟

- لا، لاشيء يستحق الاهتمام.

إبتسمت ثم التفتت يمينا. وبالتأكيد، هدير هي الشخص المنتظر. ياإلهي، لهذه العبارة وقعها على النفس، هدير هي الشخص المنتظر. إنها من أنتظره أنا أيضا. فهل سأمضي بقية حياتي في الترقب؟ لقد كتبت رسالة إليها ولم ترد عليها للآن.

هذ الفتاة رائعة في مشيتها لأبعد الحدود. رائعة في ابتسامتها، في كل شيء هي الأفضل.

قالت إيمي مخاطبة إياها

- وصلت أخيرا!

لم ترد هدير بل التفتت ناحيتي لتسأل ضاحكة

- أأنت على ما يرام الآن؟

- بخير

بالتأكيد سأكون كذلك يا عزيزتي، وكيف لا أكون وأنت من سأل عن حالي؟

- حسن جدا.

- أعتقد أن الأمر انتهى على خير

- أتعتقد ذلك حقا؟

- أنا صاح تماما

بادرت إيمي

- ما دمت صاح فلا بأس أن تعزمنا على مشروب.

تروق عبارات عادية كهذه حسب سياقها للإنسان، ما أعنيه أنني سعدت بذلك عند سماعه، ففي النهاية أنا مراد من سيعزم محبوبته الأولى وصديقتها على مشروب.. تماما كما لو كنا محبوبين.. الإحساس متماثل، هكذا بدا الأمر لي. لكن لا ينبغي أن ترى مني هذه العزيزة اهتماما بالغا بشيء كهذا، إذ أن سقطة حرة يمكن أن تأتي على حين غرة دون أن يتنبه الشخص لعلاماتها. كلامي يبدوا كهذيان شخص مجنون وأنا أدرك ذلك.. أقصد أنه من الحكمة اعتبار الأمر روتينا يوميا فحسب. عله يكون كذلك يوما ما.

قلت ببرود مصطنع

- الآن؟

أردفت إيملي

- إنتهى الدوام الصباحي، واليوم الثلاثاء.

قالت هدير بلهجة مازحة

- إلا إذا حجز المقعد غيرنا!

لم أتوقع من هذه الجميلة أن تقول مثل هذا الكلام، أبدا.. يا إلهي، هدير أيتها الشقية الحمقاء. هل سيكون في قلبي مكان لامرأة غيرك أو بشر سواك حتى أدعوه دونك وقد طلبت مني ذلك؟ ألا تدركين بعد هذه المكانة؟

أخبرتك عنها سابقا. وسترينها في الوقت المناسب. ولا أدري أنا نفسي متى يحين ذلك الوقت.

- لا، أبدا..

قاطعتني

- كن كريما إذن

تطل الطاولة المزركشة على موقف السيارات أمام المعهد وبإمكاني رؤية سيارة هذه الغنية الماكثة أمامي التي يدعوها مثلي لمشروب. لما طلبَت من أحد موظفي المقهى أن يأتيها بكوب عصير سألتها

- هدير! هل تحبين عصير البرتقال؟

أسندت مرفقيها على الطاولة ووضعت ذقنها على طرفي قبضتها ممسكة كمي قميصها الصوفي أحمر اللون بأطراف أصابعها وقالت بسكون ناظرة إلي

- أحبه.

أنا أيضا أحبك، وأهواك وأتيه في عينيك ووملامحك أيتها الحورية الرائعة. لماذا ينطق أمثالك هذه الكلمة بهذه البساطة وبهذا اللطف الشديد والسكون الجذاب؟ أرجوك لا تحدقي في هكذا! سأكون بين نارين. لا يستطيع المحب الصمود لوقت طويل أمام نظرات أمثالك ولا يستطيع النظر لشيء آخر يعلم أنه لن يفوق عيناك حسنا وجمالا مهما كان. يا إلهي! أسيأتي اليوم الذي يكون بإمكاني قول تلك العبارة لصاحبة هذين العينين؟ '' أحبك!''.

- لم يحل موسم البرتقال بعد. الفواكه التي عصر منها قديمة، من السنة الفارطة، أعتقد أن بها ضررا مهما كانت طبيعة تخزينها أو تعقيمها.

- لا، ليست كذلك

- إذن؟

- لي صديقة بقسم الكيمياء، قالت أن نكهات الفواكه تستخرج من مركبات كيميائية مختلفة. وبذلك يمكن الحصول على عصير صناعي لأي فاكهة في أي وقت من السنة.

- هو أكثر ضررا إذن!

- ليس كل ما يتصل بالكيمياء مضر.

- وهل تعتقدين أن طعاما صناعيا لا يخلف أي أضرار جانبية؟

- على كل حال، لن يكون بمستوى ضرر عصير العنب خاصتك.

- عصير العنب؟

قالت إيمي موضحة بينما تبتسم ابتسامة خبيثة

- عصير العنب، أيها.. الصاحي.

- عدنا من جديد لقضية الخمر؟!

- لا بأس عليك، أنت شارب خمر طيب.

أضافت هدير

- آه، أجل.. شارب خمر يعلم أن ما يشربه محرم قبل كل شيء

- أعلم ذلك، لقد كانت حادثة، وقد تم خداعي

- خداعك؟

ناولني العامل كوب قهوة بينما ناولهن كوبي عصير برتقال.

سألت إيملي

- من خدعك؟

- ذلك العامر، أخبرني في البداية أنها قهوة من نوع خاص لكنه سقاني خمرا

إنفجرتا ضاحكتين لتقولا معا على لسان شخص واحد

- ألا يمكنك التفريق بين الخمر والقهوة؟

- لم أتذوق خمرا من قبل أبدا فكيف لي أن أعرف؟

قالت هدير

- رائحته بعيدة كل البعد عن نظيرتها عند القهوة.

- كان الليل قد حل حينئذ، ورائحة الغابات بتلك البلاد تشغل الأنف عن بقية الروائح، أنتما تتذكران الأمر جيدا، ثم إن فكرة أن يسقيني ذلك الأحمق خمره لم تَرِدْ علي مطلقا. أخبرتكما أنه خدعني، إستغفلني ذلك الحشرة.

قالت إيملي ضاحكة

- إستغفلتك حشرة إذن

- للأسف نعم.. وسأقتلها يوما ما.

- تقتل صديقك؟

- ليس بالمعنى الحرفي للكلمة

- لا تلمه كثيرا فقد أخذ نصيبه من فعله ذلك هو الآخر.

- مالذي تقصدينه؟

- كان مخمورا مثلك أيضا..

قاطعتها هدير قائلة

- لكنه لم يصطدم بباب الحافلة حاملا حذاءه.

إبتسمتُ لكلتيهما ثم قلت

- في الغالب تكون التجربة الأولى مختلفة.

أردفت إيمي

- يتصدر المبتدؤون العرض غالبا.

- يا إلهي ما هذا التناسق الشديد بينكما أيتها الفتاتان؟! كما لو أنكما تدربتما على توبيخي قبل لقياي.

- فقط، نحن نفهم بعضنا جيدا

- صديقتان منذ الطفولة إذن.

قالت هدير التي ما تزال على هيئتها مذ بداية جلوسنا

- في الحقيقة، لقد عرفتها منذ سنة من الآن.

- الصداقة السريعة إذن!

- بل هي المودة

- رائع، أراهن أنكما ستكملان دراستكما الجامعية معا ولربما تعملان معا يوما ما، ليس كحالتي وعامر، عرفته منذ أسابيع ثم يسقيني خمرا.

قالت محبوبتي ضاحكة

- لا، ليس الأمر بهذا السوء.

قالت إيملي

- مراد! بمناسبة العمل.. هل تعمل أم أنك منخرط في إحدى الجمعيات أو ماشابه؟

- أعمل بمجال التجارة.

- تجارة ماذا؟

- الماشية، وبالخصوص الأغنام والماعز.

- كيف يكون ذلك؟

- أشتري الرأس من الغنم أو الماعز بمائتي دينار مثلا ثم أبيعها في اليوم نفسه أو بعد أسبوع بمائتين وعشرة أو عشرين دينارا. وهكذا، تلك هي التجارة.

- وكيف تعول نفسك بعشرة دنانير أو عشرين.

- أشتري وأبيع خلال أسبوع ما بين عشرة وخمسة عشر رأسا.

- هكذا إذن.

- هنالك نسبة من الأرباح تدفع لإدارة السوق.

- ما دخل السوق بعملك

- وهل يكون عملي إلا في السوق. هناك رسوم تدفع على ادخال السلع للسوق وإخراجها منه.

- سوق ماشية إذن.

- نعم سوق ماشية.

سألتني هدير

- أتعمل جانب مدينة الملاهي؟

- يفصلني عنها ثلاثون مترا فقط

- إنه مكان رائع، تعوّد جدي أن يأخذني إليه عندما كنت صغيرة

- بمناسبة ذلك، آسف لموته يا هدير، أخبرني عامر أنه توفي قبل وقت قصير.

- لا يمكننا تغيير هذه الستة الكونية.

- كان علي مواساتك حتى تتجاوزي محنتك لكن لم أكن أعلم.

- لا تهتم للأمر كثيرا.

قالت إيملي بلهجة أشبه شيء بدعابة ملطفة للأجواء

- هذه البنت قوية جدا، لقد تجاوزت المحنة بالفعل، أنت متأخر كعادتك يا مراد

كأن هدير شردت للحظة قالت محدقة بكوب العصير الذي قارب محتواه من الإنتصاف

- سواء علينا أرضينا أم سخطنا، لن يعيد الموتى للحياة شيء بعد صعود أرواحهم لمستقرها.

قلت

- إذا كانت لديك الرغبة في الذهاب لمدينة الملاهي فبالإمكان أن نحدد موعدا نزورها به نحن الثلاثة خلال إحدى عطل نهاية الأسبوع.

قالت هدير باهتمام شعرت أنها تحاول تجنيبنا بواسطته العودة لموضوع وفاة جدها

- أتوق لذلك، لكن..

- لكن ماذا؟

- سيكون عليك إلغاء عملك حينها.

- هل تضعين هذا الشيء ضمن اهتماماتك حقا يا هدير

- ينبغي أن لا يُضيّع أحدنا شيئا مُهما من أجل شيء سخيف كالذهاب لمدينة ألعاب.

- لا تلقي لمثل ذلك اهتماما، لقد ضجرت من الذهاب للسوق كل نهاية أسبوع، ينبغي أن أروح عن نفسي بعض الوقت، فالعمل والدراسة المتناوبان دون فترة راحة كافية متعب جدا على الجسد والنفس.

قالت إيمي

- أتساءل كيف يكون بإمكانك التوفيق بين العمل والدراسة، ذكرت من قبل أنك تقطن بإحدى المجمعات السكنية هنا، فكيف تنتقل لذلك المكان؟ ثم كيف يسعك توفير مكان خاص بالحيوانات في مدينة العلوم الممنوع فيها تواجدها؟ وكيف تنقلها من مسكنها وإلى السوق؟

- ثمة حي قريب من هنا، حوالي الأربع كيلومترات تزيد أو تنقص، إقتنيت بيتا غير مكتمل البناء يكون مسكنا لنعاجي وسيارة من النوع الشبيه بالشاحنات أنقلها بواسطتها.

- ألى تخشى السرقة؟

- العم عبدوا صاحب البيت، يقطن بجانبه تماما وهو من تطوع ليحرس الحيوانات ويعطيها ما يلزمها من علف أشتريه لها.

- أنت محظوظ.

- بالفعل أنا كذلك.

قالت هدير معلقة

- ثمة أشخاص خلقوا ليكونوا رائعين وشديدي الطيبة وجديرون بالثقة في هذا العالم.

قلت مندفعا

- وأنت يا هدير من ضمن هؤلاء

- هل تعتقد ذلك؟

- أحب أن أعتقد.

كأن هدير إنتبهت لعبارتي الأخيرة هذه.. كأنني سُحرت عندما رمقتني فجأة بنظرات مفادها غير مكتمل، بين طياتها تساؤل عن كمية هذه اللطافة البالغة الغير بين سببها. كأنها تفطنت لتوها بطاقة تسري بيننا لو كانت ناطقة لصرخت بكل ماأوتيت من قوة: '' هدير.. أحبك''. كأنها متشككة بما خطر ببالها عني تجاهها شكا يجعلها غير قادرة على قول '' مالذي تعنيه؟'' فلا هي ظانة بفكرة محبة هذا الشخص اللطيف في كلامه معها لها فتتحقق أكثر ولا هي بمقام يجبر أيا كان على مخاطبتها بهكذا طريقة فتهمل الأمر. وكأن الثاني غلب على الأول في قرارة نفسها، عاد لعيناها المختلف لوناهما ذبولها وإلى ملامحها سكونها فكأنها لم تسمع ماقلته ودُهِشَت منه، لم تُعلق بشيء، فأُغلِقَ

الباب الذي أوشك أن يفتح عله يفعل ذلك في مناسبة أفضل من هذه حيث يستقر الود بيننا لدرجة لا أخشى عندها أن يفتح بطريقة مخيبة لأملي.

إتفق ثلاثتنا على الذهاب ليلة الأحد لمدينة الملاهي حيث قررنا الإلتقاء عند الرابعة عصرا يوم السبت أمام محطة قطار الأنفاق وسط المدينة ومن ثم نستقل أحد القطارات المؤدية للمحطة المركزية تحت سوق المواشي ونصعد بعدها للسطح حتى نكون أمام وجهتنا التي نقصدها.

في اليوم الموعود أتت بسيارتها التي رأيتها من قبل. تلك السوداء اللماعة الفخمة من النوع الذي يفضله الأغنياء. لم تجذبني السيارة بقدر ما أعجبني المنظر ككل ،هدير متكئة على جانب مركبتها.. حلوتي البراقة دائما، تكون على أفضل هيئة. ياه! عنيدة وصلبة الرأس هذه الهدير ، هذه.. إبنة أمها وافقت بعد نقاش مطول معها أن تأتي دون سيارتها إلى محطة القطار فهاهي تأتي بالسيارة، حتى صديقتها الشقراء لم تكن معها.. لم أفهمك للآن أيتها العزيزة.. فهل سأفهمك يوما ؟!..

لما اقتربت منها فتحَت الباب ثم دخلَت وأدارت المفتاح لتشغل المحرك وحين صار بإمكاني سماعها بادرت

- إركب!

ترددت للحظة

- ماذا ؟

أغلقت باب السائق ثم التفتت إلي لتقول

- قلت لك اركب

- إلى أين ؟

- إلى أين برأيك ؟ أرجوك اصعد! الجو بارد. هيا!

لم يكن من بد لأن أذعن لما قالته ففعلتُ لتنطلق هي بدورها باتجاه الغرب، حيث مدينة الألعاب.. وساد لوقت قصير بيننا الصمت.. و.. إسترقت النظر إليها بينما هي ناظرة للأمام طوال مدة صمتها ثم.. يا إلهي ما أجمل هذه الحورية التي جعلتني أعرفها، وما أحلاها. أنا أحبك يا إلهي لأنك جعلتني معها ولأنك زِنتها في عيني ولأنك توجِد هذه المخلوقات في كونك الذي صنعت، لهذا.. كونك أيضا أحبه كما الدنيا وكاذب من يقول أنه يحب الله ولا يحب الجمال، خاصة من هذا النوع. إن من زينة الحياة الدنيا أن يرينا

ربنا هذه الأشياء.. وأنا أحبك يا إلهي لأنك جعلتني أهوى هدير ولأنني شخص محظوظ فأصعد معها في سيارتها.. وأيضا.. هكذا الحال إذا!.. مراد وهدير ذاهبان معا دون غيرهما في سيارة إلى رحلة ترفيهية ومراد يحب هدير وهذه الأخيرة كملكة على عرشها، والملكات جميلات غالبا، بسن أميرة وهي ملكة، إبنة أمها حورية. وأقراطها الذهبية زادتها تألقا وبهاءا، وفي وسطى وبنصر يمينها الممسكة بالمقود خاتمان ذهبيان يزينانها على بياضها الثلجي ، وآخر فضي في اليد الأخرى.. وأساور.. يا إلهي ما أجملها! إنها.. هديرتي آية في الحسن والعذوبة.. يسعني رؤية عينها اليمنى الخضراء مركزة كل نظرها على الطريق.. ثم عنقها الشديد البياض.. كالزجاج، يخيل للمرء أنه بإمكانه رؤية ما وراءه، يكاد يضيء وإن لم يكن عليه شيء من نور.. وشفتاها.. اللعنة علي كم أريد تقبيل هذه المرأة، ومن ذلك المكان بالتحديد أقبلها حتى.. حتى.. أقبلها مدة كعمر الكون، ثم من وجنتيها، وعنقها المرمري.. أستغفر الله.. هذه الأفكار الغبية تمر علي أحيانا والصمت هو السبب غالبا.. لكن، هذا موقف محبوب، فأي شيء خير بالنسبة لي من أن أكون معها. آه.. تبا لك يا عامر، لقد إبتلعتك الأرض يوم احتجتك أيها العاهر، إنك بارع في السقي، وبدل أن تسقيني معرفة بكيفية التصرف في هذه المواقف سقيتني خمرا.. الخمر لا ينفعني في هذا الوقت.. بل إن نصائحك هي التي تفعل.. إلتفتت إلي قليلا فبرزت خضرة عينها اليمنى مثلما برزت ثناياها بين شفتيها الرقيقتين المحمرتين حين قالت

- ما لك شارد الذهن هكذا؟

مالي شارد الذهن؟ أميرتي! يا عصفورتي النادرة! أتُراني أجلس جانبك أنت هكذا دون أن أشرد؟ ممتن أن لم يذهب عقلي بعيدا، أو أجن، الجمال يصيّر العاقل مجنونا، أتعرفين؟ يفقدني عقلي.

ضحكتُ ضحكة خفيفة وأردفت

- لا.. لا شيء.

إلتفتت ثانية إلي مبتسمة متعجبة وسألت

- مالذي يضحكك؟

- لا شيء مهم!

- أشعر بالخوف حينما يضحك أحدهم جانبي دون سبب أعلمه.. ضحك جمع من التلامذة صباح الأمس عند مروري بالقرب منهم ، لم أفهم السبب في البداية حتى تفطنت لاختلاف لوني الجوارب..

إبتسمَت، أو كأنها ضحكت، أو بين الإبتسامة والضحكة أضافت

- تعرف ذلك الشعور!.. حين تتمنى أن تختفي من الوجود للحظة.. تبتلعك الأرض أو شيء مثل هذا

- إطمئني، أما الآن، فلا شيء عليك. كل شيء فيك متناسق.

- لماذا ضحكت هكذا فجأة إذن؟

كأن الكلمات خرجت دون إرادة مني قلت

- لأنك جميلة

كنا عند مفترق طرق، وبينما ألقت نظرة خفيفة على المرآة الجانبية وهي تدير المقود لليسار قالت

- هكذا الأمر إذن! لأن هدير جميلة، حسب رأيك.. أنت تضحك!

- هدير! أنت بارعة في القيادة!

نظرت إلي لبرهة، وأنا أعرف مغزى نظراتها هذه.. أجل، لتخبرني أنها لاحظت تهربي من سؤالها.

قالت

- هذا رأيك، لكنني أخاف السير في طريق سريع كهذا

- وأنت التي تعبرين كل يوم من الطريق السريع داخل مدينة العلوم!

- إنهما مختلفان

- لا أرى اختلافا كبيرا

- أمركز المدينة بالنسبة لك كضواحيها؟ يمكنك ملاحظة الفرق في عدد السيارات المارة.

- لكن ذلك لن يشكل خطرا على ما أظن

- المشكلة أن البعض يتجاوزون السرعات المسموحة.. والبعض الآخر من الحمقى.. أرأيت البحيرة التي مررنا عليها قبل قليل؟ إعترضني إحدى المرات

هناك أحد العجائز يقود في الإتجاه المعاكس ويا إلهي.. كاد قلبي يسقط من مكانه. كدت أصطدم به لولا أن أدرت المقود في آخر لحظة.

- هناك حمقى من هذا النوع إذن، لا شك أنه مجنون حينما يقود في الإتجاه المعاكس.

- ليس مجنونا، بل غبي.

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا تأتين بها هنا.. أتذكّر أننا اتفقنا على الذهاب بواسطة القطار. بالمناسبة، أين صديقتك إيمي؟ لم لم تأت معك؟

- قالت أن زكاما أصابها.. نزلة برد.

- الطقس متقلب هذه الأيام

- إيمي أيضا متقلبة كثيرا

- لم أفهم

- أعني.. إنها فتاة مجنونة، أنت تعرف، ترتدي ذلك اللباس في هذا البرد القارس!

- آه.. نعم.. هي واحدة من كثيرات

- يا إلهي، كيف يتحملن التعري هكذا

- هدير!.. أنت..

- يجعلن أنفسهن سلعة معروضة للعموم! إيمي صديقتي المقربة لكنها للأسف من ذلك النوع، لهذا فهي مريضة الآن.

- الأمر عائد إليهن ففي النهاية لكل منا طبعه.

نظرت إلي للحظة وقالت

- ليس الأمر عقيدة مني أو شيء من هذا القبيل. أتمنى ألا تفهم الأمر بطريقة خاطئة..

ضحكَت وأضافت

- على كل.. لا تهتم لما أقول

- بالتأكيد يا هدير، الأمر لا يعدوا أن يكون..

قاطعتني

- لست راهبة أو ما شابه لكن.. كما تعلم، هنالك حدود لمثل هذه الأشياء.. أنت تفهم قصدي.

نعم.. نعم أيتها العزيزة، أفهمك جيدا وأعي ما ترمين إليه.. وأدرك الآن أيضا أنك أفضل مني ومن تفكيري الخسيس قبل قليل، أأنت من أريد تقبيلها؟ نعم أريد، لكن ها أنا ذا أدرك الآن أنك أرفع بكثير من أن يقبلك أحدهم في مثل هكذا موقف، وإن كنت أنا! ومن أنا ؟ مَثلي ومَثلك كمثل رجل يريد قطف فاكهة فردوسية من شجرة قطوفها عالية ولم يجد لذلك سبيلا.. ها أنا الآن أحبك أكثر من ذي قبل يا هدير لكنني أحترمك أكثر ووزنك داخل قلبي يزداد ومقامك يرتفع، أيتها العذراء النقية.. أتدرين فيما أفكر الآن بشكل جاد؟ أن نكون زوجين.. محبوبين. هدير، هل تقبليني زوجا لك؟

قاربنا من الوصول.. مربعين سكنيين، على أقصى تقدير. أوقفَت السيارة جانبا ثم فكت من عليها حزام الأمان وهمت بالنزول.

- ماذا هناك؟

بينما فتحت الباب قالت

- سنستريح هنا لبعض الوقت

- إنتظري! نستريح؟! فوق هذا الجسر؟ على بعد دقيقتين من المدينة؟ وفي هذا الطقس البارد؟ الشمس غابت الآن..

ذهبت باتجاه الحافة وأسندت ساعديها على البناء المعدني دون أن ترد.

هدير! أعلي أن أقول أنك لست على طبيعتك؟ أعلي أن أكرر أنك شخص غير مفهوم؟

فتحتُ الباب ونزلت ثم أغلقته ولحقت بها.

- الطقس شديد البرودة، بسببه أصاب الزكام صديقتك..

- أنظر

- أين؟

إلتفت إلى حيث سكنت عيناها الذابلتان تجاهه.. من قبل، لم أدخل مدينة الألعاب، لكنني لم أرها من هذا المكان أيضا. العجلة الدوارة عملاقة، بكل ما للكلمة من معنى.. وبالرغم من وجود ماكينات أخرى كبيرة من أنواع مختلفة

لن تهرب عين الناظر خلال اللفتة الأولى من هذه الآية، يا إلهي.. أقسم أنها آية عجيبة، معجزة صنعها بنوا البشر.. ولم يحدثوني عن هذا الشيء قبل مجيئي للحاضرة.. عل من حدثني لم يرها وإلا فلن يعود لتلك المرتفعات الباردة، وعل من لم يحدثني عنها قرر البقاء في المدينة ليشهد مساء كل سبت بعد الغروب بدقائق هذا الجمال. لقد رآها، لذلك لم ألتقي به في الريف.. أتدرين يا هدير أنني أكتشف معك وعنك كل مرة شيئا جديدا؟ ليس أي شيء، إنك تنتقين ما يناسبك من بدائع هذا الكون العجيب، وإن كنتِ أعجب ما فيه، ولقد التقى الحسن مع الذوق فيك فكيف لي ألا أحبك؟ كيف؟ هيا أخبريني.. تنبعث الأضواء من هذه العجلة الضخمة، في كل ركن فيها ضوء مختلف عن الآخر.. في البداية كانت هذه الأخيرة المصدر الأوحد للنور في ذلك المكان. بدأت بالدوران، وبالتوازي مع ذلك أصدرت الأبواق ضجيجا قويا في كل مكان.. ضجيج قوي لكنه هادئ، مستساغ السمع، لم أفهمه، كان بلغة أجنبية، موسيقى.. إنها أغنية.. متلائمة مع الجو البارد ومتلائمة مع الأضواء ومعي وهدير والأرض والسماء الصافية.. أميز كوكب المشتري، وقد بدأ يتلألأ في الفضاء فالسماء صافية إذن.. ثم تغيرت الأغنية فجأة، أصبحت صاخبة ومستوى الصوت ارتفع ثم.. يا إلهي، إندفعت إلى السماء من كل مكان في مدينة الألعاب المطل عليها الجسر الذي نقف على جانبه كمية هائلة من صواريخ صغيرة الحجم حاملة لمفرقعات أضاءت بنورها الدنيا، المتطابق انفجارها مع الأغنية الأجنبية.. حقيقة إقشعر بدني لذلك.. وأذهلني.

قالت

- ما رأيك؟ رائعة! أليس كذلك؟

صوتها غير عادي بالمطلق، إلتفتُّ إليها دون شعور مني.. كانت تبكي، يا إلهي! إن حبيبتي تبكي! ولمعان أضواء المفرقعات على خديها دلني على دموعها.. دموع من؟ دموع هدير، المرأة التي أحب؟ نعم المرأة التي أهوى..

- هدير!

- أيا يكن.. تعال.. لنذهب

همت بالذهاب إلى السيارة فأمسكتها، جذبتها إلي.. من ذراعها الأيسر

- ماالذي يحدث؟

- لا! لا شيء يا مراد، لا شيء يستحق الاهتمام

أرادت إفلات يدها لكنني لم أرد.. كنت مصرا

- بلى، ثمة شيء ما، أنت.. هدير أنت لا تتصرفين على طبيعتك، لماذا تبكين هكذا دون سبب واضح

- لماذا ضحكت أنت قبل قليل دون سبب واضح؟ الأمر سيان فمثلما..

قاطعتها

- هدير، هل تعتقدين أنني أمزح معك هنا، أخبريني الآن مالذي يحدث

- قلت لك، لا شيء مهم.

- بلى هو مهم، مالذي يبكيك هكذا؟ قولي!

كأنها دهشت من تصرفي، هكذا تقول نظراتها.. قالت بهدوء وهي متعجبة

- مراد!

- أرجوك يا هدير، أيبكي المرء هكذا دون سبب؟ لا شك أن ثمة ما يضايقك..

كأن نبرة صوتها تغيرت، قالت

- هلا أفلتّ ذراعي من فضلك يا سيد مراد! لو سمحت.

أكاد أقسم، أن لو لم يتغير شكلها أمامي لجزمت أنها ليست من كنت أحادثها قبل قليل، لكنها هي، ذاتها.. وسيد مراد!.. نحن صديقان يا هدير، أتذكرين؟ ولا ينعت الأصدقاء أصدقاءهم بكلمة سيد أبدا.. وأنت تعرفين ذلك. هل أخطأت في شيء حينما أردت معرفة سبب بكائك؟ للأسف يبدوا أنني أخطأت.. ربما لديك أسبابك الخاصة أن امتنعتِ عن إخباري، وأنا أقدر ذلك. فهل ستقدرين سببي الوحيد الذي جعلني ألح في السؤال؟ إنه حبي لك، أيتها الحمقاء. ثم حين تعرفين مشاعري الصادقة تجاهك، أستقدرينها يا ترى، ربما نعم وربما لا، لست متيقنا من أي شيء.. ما أعتقده الآن هو أنك شخص غير طبيعي.

- آسف..

ثم أفلتُّ ذراعها بسرعة، كمن لدغته حية بسمها، والحية لا تلدغ إلا بالسم، وهذه الهدير ليست حية لكنها تلدغ، كلماتها تسري في أنحاء الروح كسريان ما للأفعى في الأبدان. لقد أفلتها واتكأت على عارضة الجسر المعدنية. أما هي فعلى الفور توجهت إلى سيارتها وأدارت المحرك لكنها لزمت مكانها لدقيقة أو

اثنتين.. هي بسيارتها قابعة وأنا.. بدأت أتمشى.. ومرت سيارات عديدة بجانبي وشردت لبعض الوقت حتى خيل إلي أن هدير مرت.. وواصلت المشي وسط تلك الأضواء الباهتة اللون مسافة مائة متر تزيد قليلا أو تنقص إلى أن تفطنت إلى سيارة تسير ببطء خلفي ثم صارت بجانبي، إنها هي، نظرت إلي من خلال النافذة اليمنى وقالت بهدوء الجاد في كلامه

- ألن تصعد؟

- لا، لا بأس يمكنك الذهاب، شكرا، سأتمشى قليلا.

- إصعد

- قلت أنني سأتمشى قليلا هنا.. بإمكانكِ الرحيل

- لكن الجو شديد البرودة.

- لا مشكلة بالنسبة إلي

- هيا اصعد أرجوك.. مراد.. سنذهب لمدينة الألعاب. أنسيت؟

- إمضي قدما، إنها قريبة، سألتقي بك هناك.

- لن أذهب إلى أي مكان حتى تركب.

لم أَرُد إنما أشحت ببصري بعيدا عنها

نادت

- أنت يا مراد، تتصرف كالأطفال.

- آه.. أنا كذلك

- هل غضبت مني لهذه الدرجة؟

لم أغضب منك يا هدير، ولن أغضب أبدا لكنني لا أفهمك، وتصرفك هذا يخيفني، أتدرين؟ يجعلني منعزلا عنك.. يبعدني عنك دون إرادتي. وأنا أحبك ولا أريد مفارقتك.

أضافت

- مراد.. لا يغضب صديقي مني لهذه الدرجة، ونحن صديقان، أنسيت؟ لذلك نحن هنا، والآن، إصعد، صدقني، سيصيبك ما أصاب إيمي، وإن لم تركب معي فسأشعر بالذنب.

- وصديقتي لا تناديني بالسيد

ضحكت وقالت مازحة

- حسنا، لا بأس، لن أناديك بالسيد بعد الآن سأنعتك بالسيدة لو أردت.

- أنت تفهمين قصدي

- حسنا يا مراد، لن أناديك بما لا تريد، إتفقنا؟ وآسفة لأنك انزعجت، أهذا يرضيك الآن؟

- أنا لم أغضب منك يا هدير، لا أغضب منك أبدا، لذلك لا تعتذري بسبب شيء كهذا.

- يبدوا أنك رضيت، والآن.. هيا.

صعدت معها وقلت فورا

- أنا آسف لتصرفي أيضا

- إعتذارك مقبول

أضافت

- من شيمي أن أقبل للأطفال اعتذاراتهم مهما أخطئوا

- لست طفلا!

- بلى أنت كذلك

- غير صحيح

إلتفتت إلي وقد عضت شفتها السفلى وبدا أنها حزينة، بالآن ذاته كانت مبتسمة نصف ابتسامة

- آه.. أنت لست طفلا، أمزح.. أنا أمزح معك.

- أعرف ذلك جيدا، يا هدير، لا تقولي هذا! هكذا ستشعريني أنني طفل بالفعل.

ضحكت وقالت

- رائع

- على كل حال، لقد أقلقني بكاؤك المفاجئ، هذا كل ما في الأمر

- لا تهتم يا مراد، لاشيء جدير بالذكر، صدقني

- أصدقيني القول، أرجوك

- أنا لا أكذب يا مراد

جلسنا على مقربة من العنفة بعد دخولنا مدينة الألعاب وباق حزن يعتريها باد على ملامحها وصوتها وإن تعمّدَت إخفاء ذلك فأردت الحديث معها في أي شيء عل ذلك ينسيها ما يحزنها وإن لم أكن عارفا به أصلا. لا أريدها أن تحزن وهذا كل ما في الأمر..

- هدير..

- نعم

- هل لي أن أسألك عن شيء يثير فضولي بعض الشيء

- أعتقد ذلك

- مالذي تعنينه بهذا

- أهذا هو سؤالك؟

- أرجوك.. أعني، مالذي تقصدين بقولك ''أعتقد ذلك''.

- إذا أردت أن تسأل شخصا عن شيء فافعل مباشرة، لست مظطرا لأخذ الإذن من أحد.

- هذا درس قيم جدا على ما أظن.. أتساءل يا هدير..

قاطعتني قبل أن أكمل جملتي

- ماذا؟

-كأنك أشبه بالغريبات بالنظرلملامحك وشكلك

كالمتعجبة قالت مبتسمة

- ما هذا السؤال؟

- إنك مختلفةعن غيرك.

- هل أنت ممن يحكم على الناس من مظهرهم الخارجي

- من قال هذا؟ تتحدثين كالفلاسفة.

- لست غربية يا مراد

- جزء منك كذلك إذن.

حركت شعرها المنسدل قليلا إلى الخلف والتفتت إلي مباشرة ونور قوي منبعث من أحد المصابيح المعلقة ساطع بحمرته المائلة إلى الصفرة على وجهها فكأن شمسا سطعت بنورها على نظيرتها فزادتها جمالا كما زادتها ابتسامتها الطفولية حلاوة.. أنت آية في الحسن يا عزيزتي يا هدير فيا ليت العالم يراك مثلما أراك أنا، وليت الناس يعرفونك كما أعرفك أنا.. لا! لا أريد أن يراك العالم كما أفعل، فأنا أريدك لي، حبيبتي وحدي دون غيري.

قالت محافظة على ابتسامتها التي تأسرني كل مرة

- مطلقا، أنا عربية أصيلة.

- كالفرس العربية الأصيلة

ضحكت ثم قالت

- تشبيه غريب

- أعني في الأصولية

- آه أجل.. الأصولية، وكأن لمعنى هذه الكلمة علاقة بما تقول.

- أنت تفهمين ما أعنيه جيدا.

- كان عليك أن تستعمل كلمة النقاء.

- شكرا على هذا الدرس القيم في اللغة

- مرحبا بك في كل وقت

ضحكنا سوية..

هذه الفتاة رائعة على كل المقاييس ولهذا أحببتها أكثر. لا يريد مثلي إلا أن يستمر في الحديث معها عن أي شيء فأردت بشدة إخبارها عن مشاعري تجاهها.

- لدي سؤال آخر

- كم مرة عليك تكرار هذه الجملة القروية؟

- أنا ريفي الأصل بعد كل شيء، لكن حقا، أعتقد أنه ينبغي عليك معرفة أنني سأسألك هذا السؤال.

- ماهو؟

- هل أحببت شخصا من قبل؟

- بالتأكيد، فعلت، أحببت جدي، وإيملي، وكثير من الناس. كما أخبرتك، هنالك أناس خُلقوا حتى يكونوا محبوبين، ولا يمكن لمن يعاشرهم دفع محبته تجاههم.. ويلبث ما شاء الله أن يلبث معهم حتى يفترق عنهم، وذلك أقصى أنواع الخذلان.

وددت الإستفسار عن سبب هذه الكئابة التي توزعت بين ملامحها وكلماتها لكن لم أفعل، أردت تجاهل الأمر.

- ليس هذا ما أعنيه، أقصد.. هل أحببت أحدهم عشقا من قبل.

- ليس لهذه الكلمة معنى لغوي.

- أنت تفهمين ما أعنيه يا هدير.

- أفهم ذلك جيدا بيد أن عليك النطق بألفاظ صحيحة المعنى.

- أرى أنك تتهربين من السؤال

- إن سؤالك هذا غبي جدا يا مراد

- مالشيء الخاطئ هنا؟

- أتدري من يسأل مثل هذا السؤال عادة؟

- إن ضايقك الأمر فلا بأس، أنت معفية من الإجابة بالتأكيد

- بلى، أجيبك، كان عليك القول هل لديك حبيب أم لا

- دروس التلقين عندك لا تنتهي

- من الواجب تعليم القرويين كيف يتكلمون

- هل أعتبر هذه إهانة؟

- إذا كنت تخجل من كونك قرويا فيمكنك اعتبارها إهانة

- هدير! هل لديك حبيب؟

بغض النظر عما قالته هذه البنت فالأمر الذي يؤرقني يدور حول سؤالي الأخير هذا.

كانت مبتسمة قبل كل هذا وإن كانت حزينة بعض الشيء حتى ظهر بين ملامحها شيء من الجد، فراحت تحدق بي لبرهة من الزمن. ثم قالت بكل بساطة

- لا

- مالذي يمنعك من هذا؟

- لاشيء يمنعني.. إنها فقط مجرد سخافات

- أتقولين أن الحب سخافة؟

- أقول أن هذه العلاقات بين بعض الشباب المدروجة تحت مسمى الحب غير كافية.

- مالذي يكملها؟

- الزواج

- أأنت جادة في ما تقولين؟

- وماذا في ذلك؟

- أتقصدين أن لو طلب منك أحدهم يدك للزواج.. والأكن أنا ذلك الشخص.. تقبلين؟

قلت ذلك متصنعا المرح ولم أكن أمرح بالتأكيد فذلك أقصى ما أتمناه.

إبتسمت وقالت

- في تلك الحالة سأقول لك أننا لا نزال صغارا على شيء اسمه زواج

- لنفترض أننا بعمر أكبر من هذا، فهل تقبلين؟

- أأنت جاد حقا؟

- إعتبريني كذلك

- ليست الأمور بهذه البساطة حتى يسعك الحديث عنها وكأنك عارف بكل خباياها.

- لم أفهم مالذي ترمين إليه.

تجاهلت صاحبة المكتبة جملتي الأخيرة وظلت تحدق بالعنفة العملاقة كأنها تراها لأول مرة ولم تسمع قولي، ولقد أجبرني صمتها على أن أصمت بدوري. سكنت الأجواء بيننا لبرهة من الزمن حتى تكلمت مغيرة بذلك دفة الحديث حول موضوع آخر تماما.

- هل تصدق ذلك يا مراد؟

- أصدق ماذا؟

- يقولون أن أرواح الأجداد لا تنفك تتابعنا في كل حركاتنا وسكناتنا.

صدمتني جملتها هذه وأربكتني، فماعساي أقول؟ هل أقول لها أنها تجاهلت سؤالي؟ إنها تعلم ذلك، وتعرف أنني ألاحظ تصرفها جيدا فكان الأمر أشبه شيء بصفعة على الوجه مفادها ''كف عن الكلام في ما لامعنى له فأنا لاأريد الحديث في مثل هذا مطلقا''. هكذا تكون الترجمة الحقيقية لموقفها. أقول أنني أكتشف كل مرة شيئا جديدا عن هذه البنت الجميلة، كأنها متعالية عن هذا النوع من الأحاديث، أو كأن هذه الأخيرة محرمة بشكل ما عندها أو ربما لا تود الحديث عن مثل هذه الأشياء سوى مع عشيقها الذي لم تخبرني عنه.. المعلوم أن ثمة حاجزا بيننا صنعته لتوها يظهر كلما برز هذا الموضوع على واجهة أحاديثنا. هذه الفتاة ليست طفلة كبيرة كما يظنها من يراها أول مرة أبدا. هي أشبه بالفرس العربية حين يتعلق الأمر بكونها أصيلة العرق، وبالشمس في جمالها واكتشفت لتوي أنها أشبه شيء بجبل لا يمكن تطويعه بسهولة في هيبتها. إنها بالرغم من رقتها تتجاوز المخاطب بلفظة واحدة أو نظرة أو صمت أو سكون. وما لمثلي إلا أن يتجاهل نفسه بدوره ويمتثل للإتجاه الذي تريده هذه الهدير.

قلت

- أوتصدقين أنت هذه الأقاويل

- أريد ذلك

- عند التفكير بالأمر مليا، أعتقد أن شيئا كهذا يبعث على الخوف، أو ما شابه

- ألك قريب متوفى؟

- والدي متوفى

- آسفة

- لا عليك، لا أعرفه أصلا، هلك ولم أتجاوز الحولين من عمري

- ومع ذلك..

صمتت لثانية لتضيف

- ومع ذلك تجد أن شيئا ينقصك، صحيح

- ربما نعم، وربما لا. الأمر يختلف من شخص لآخر

- عل قولك يصح في حالتك، ولكن مذاق طيب العيش مع شخص ما يعسر عليك نسيانه عند فقده

- إنها سنة إلهية كما أخبرتني من قبل

- ومن سننه أيضا أنه خلقنا بشرا نشعر بمرارة الفقد، ففي النهاية كان جدي الشخص الوحيد الذي بقي لدي، أوتعلم يا مراد؟ أرى أن الله لا يعطي لخلقه مثل ذلك الكم من المال إلا وقد أخذ من عندهم الشيء الكثير، في معظم الحالات على الأقل.

- وما تحسبين ذلك؟

- وما عساي أقول؟ هل سأعارض الأمر برأيك؟

- ينبغي على أحدنا أن يرضى في النهاية بما كتب الله له ويكن من الشاكرين

- أتدري؟ عل الإنتحار يكون حلا وسطا

فاجأني كلامها فلم أتوقع من هذه البنت أن تفكر في شيء كهذا

- هدير! أأنت بخير؟ ما هذا الكلام الذي تتفوهين به؟

لم تقل شيئا.

- مالذي يحدث؟

- مالذي يحدث؟ آه.. حدث أن توفي والداي في حادث مرور وأنا بسن الرابعة ولما تولى جدي تربيتي أخذته المنية ولم أبلغ العشرين من عمري بعد. فصرت وحيدة. هذا ما حدث يا مراد.

الآن عرفت سبب حزنها. هي لأنها ترى نفسها بلا عائلة تعتقد أنها وحيدة..

آه يا هدير، أيتها المحبوبة.. كنت لأضمك لصدري تلك اللحظة لو علمت أنني سأفترق عنك بتلك الطريقة السيئة، لأواسيك.. لأريك أنني معك حقا. آسف.. ليتك تعودين الآن. سأعانقك حتى تنسي معاناتك وحتى تتيقني أنني وهبت نفسي لأكون حبيبك، أو زميلك أو صديقك أو أخاك أو أباك أو عائلتك أو ما تريدين مني أن أكون.. ألا ليتك تعودين إلينا يوما حتى أملأ عيناي بك وحتى تدب الحياة داخلي من جديد عل الدهر يعطيني في سويعات حياتي الباقية ما ضن به علي سنوات

- آسف لذلك، لكنك لست وحيدة أبدا.

- شكرا، لكن.. أنا كذلك

- أنا معك

كأنها تعرف مسبقا أنني سأقول هذا، ودون أن تلتفت إلي قالت بهدوء

- هل أنت معي حقا؟

- أجل، أنا معك

- مراد! من أنت؟

- حقيقة.. لا أعرف

- أخبرتك أنني وحيدة

- أرجوك لا تكرري هذا، ربما لا تربطنا قرابة لكننا أصدقاء..

قاطعتني

- لا تفهم ما يعنيه أن تكون في مثل حالي

- ماذا في ذلك يا هدير؟ سنعيش كما تريدين أنت منا أن نعيش، أخ وأخته أو جار وجارته صديق وصديقته أو زميل وزميلته.. أقدر ما أنت عليه، لكن الأمر لا يستحق أن تفكري في الإنتحار.. إنه أسوأ الحلول

- ربما يكون هذا غريبا بالنسبة إليك.. وحينما تفقد شخصا عزيزا عليك ستفهم ما أعنيه.

- لكل منا مبتلاه يا هدير..

- لا أحد منا حمل شيئا من السماء حتى يكون له فضل على غيره، لستَ محور الكون يا مراد فتنجوا من شعور الفقد ولا أنا كذلك. إنه شعور سيء جدا.

- أرى أنك لست بخير، ألا ينبغي علينا الرحيل من هذا المكان الآن؟

- ولكننا لم نركب العنفة بعد!

- أرى أنك تودين الإنتحار الآن.

قلت ذلك مداعبة.

إبتسمت لتقول

- ثمة طرق أسهل

- أرجوك يا هدير، أنا قلق بشأن ما قلت و..

قاطعتني

- لا تأخذ الأمر بجدية هكذا! أنا بخير.. لا تقلق.

لا شك أن لكل إنسان نظيره في حياته ولن يهرب أي أحد من الآخر أبدا. ولربما يتاح لأحدهم أن يطلع على نظيره دون علم منه بذلك! يوما ما! أعتقد أن هدير نظيرتي في حياتي.. حسنا! أبدو متفائلا لكن مالذي ينبغي علي إعتقاده وابتسامتها تلك تأسر القلوب مثلما تكسرها..

بعد زيارتنا لمدينة الألعاب بشهرين قررت إخبارها أنني أحبها. فعلى كل حال لم يعد من شيء يمنعني.. أخشى أن يحدث معي شيء من مصائب دهر لا يأمنه العاقلون فأُحرم من ذلك. فالتعلم هي الأمر وبعد ذلك، ستتضح الرؤيى لناظرها.

كانت صبيحة الخميس باردة ضبابية وأنا الذي حسبتها مشمسة. والمدينة بأكملها بالرغم من صخبها وضجيجها يعتليها سكون، هادئة. ولا أدري أيومي ذاك ما جعلني أعقد العزم بما سأقوم به أم عزمي هو ما جعلني اشهد يوما عاديا بتلك الطريقة. وهل يغيب ضباب مدينتنا عنا من قبل؟ أم يكف المطر عن الإنهمار أسبوعا؟ أم هو الحب ونيران الشوق تفعل بصاحبها ما يجعله يرى ما لايراه غيره من الناس ويسمع ما لا يسمعون. على كل حال فإني قد عقدت عزمي على إخبار هدير أنني أحبها. هو هدف بدون معنى أن يسعى أحدهم ليخبر من يحب بما يشعر تجاهه غير أن للأمر غاية غير مدركة وغير مفهومة، وحتى ينهار جدار الصداقة التي بني بيننا فإما أن يبنى

قصر حب متبادل أو ينبت شجر بؤس يثمر جفاءا وبعدا وحنينا وعذابا.. المهم أن ينهار الجدار الحالي.

مالذي ينبغي علي قوله في مثل هذا الموقف.. إنها محطة مهمة بالحياة. ومنعطف كبير.. لا ينبغي على أحدهم حمل البيض كله في سلة واحدة لكنني فعلت.. لقد أردت أن أحمل كل شيء بحياتي بسلة هواها وقد فعلت دون إدراك مني عن حقيقة حامل تلك السلة..

رأيتها بصحبة إيملي وفتيات أخريات فأتيتها وأخبرتها أنه ينبغي علينا أن نتحدث بموضوع مهم في المكتبة عند الخامسة مساء وقد استفسرت عن الموضوع آنذاك. '' ستعرفين. إلى اللقاء..''. كان ذلك آخر حديث منطقي بيننا.. أتخيله في كل مرة آخر ما كان بيننا.

لبست خير ثيابي وتعطرت وفعلت ما ينبغي للمحب أن يفعله لينال إعجاب من يحب. ثم ذهبت إلى مكتبة المعهد في صالة الإستقبال. رأيتها تمعن النظر بكتاب بين يديها. جالسة عند أقصى طاولة على يسار كل من يدخل صالة الإستقبال. وكان بضع عشرات من الناس هناك. تلامذة ومعلمون وبعض الباحثين..

- مرحبا

- أهلا

- تطالعين كالعادة..

- آه نعم.

- كيف حالك؟ لقد أحببت رحلتنا الترفيهية حقا..

- ما موضوعك المهم؟

- آه حسنا.

ثم جلستُ

- أنا منصتة

- يا إلهي. أنت فتاة جميلة جدا ورائعة أيضا وليس للواصف عمر كاف ليصف محاسنك. كما أن أخلاقك رفيعة وعلى كل مقياس في هذه الحياة، أنت الأفضل.. أعتقد أنني أحمل شيئا من المشاعر تجاهك.. أعني.. لا أطلب منك أن تبادليني نفس المشاعر أو ما شابه..

- حسنا!

- أحبك ياهدير. هذا ما أردت إخبارك به.. لدي شيء أعتقد أنه جميل.. وهو حبي لك. فأردتك أن تريه.. هذا كل ما في الأمر.

- فالمطلوب إذن؟

- لا أطلب منك شيئا يا عزيزتي! فقط أردت إخبارك.

- جيد جدا. أتمنى لك يوما طيبا. نهضت من مقعدها ومضت متجهة خارج المكتبة

- أهذا كل شيء؟

- أعتقد ذلك.

- عذرا ولكنني لم أر أي إشارة منك تجاهي!

- ألم تقل أنه لا ينبغي علي مبادلتك نفس المشاعر؟

- لا يعني ذلك أن تتجاهليني بكل بساطة هكذا! إنه تصرف! أعني لم أعهده منك من قبل!

- حسنا فالذي ينبغي علي قوله لك؟

- أريد جوابا!

- حول ماذا؟

- هدير! إستمعي إلي لو سمحت، لا تأخذي الأمور من هذا الإتجاه.. لا تسلكي هذا المسلك.. أرجوك! أنت تفهمين ما أعنيه أليس كذلك؟

- آه عذرا.. لا أفهم ما تعنيه إطلاقا يا مراد..

أمالت رأسها قليلا ناحية كتفها الأيمن ببطئ عندما قالت ذلك. إبتسمت.. ثم مضت..

إبتسامتها تلك المرة كانت باردة.. باردة لدرجة جعلتني أغرق في صمت ظننت ألا نهاية له.. فقط تابعتها بعيني حتى ابتعدت بجسدها. وأعتقد أنها ابتعدت عني بروحها لمكان علمت حينها أنه لا يمكنني بلوغه أبدا..

هكذا تكون المواقف على أرض الواقع. شيء لا يمكنك توقعه ولا تخيله.. كنت أدرك أنها ربما ترفضني أو لعلها تقبلني أو ربما تخبرني أنها ستفكر في الأمر أو أن لديها عشيقا أو أي شيء مغاير لما حدث.. نظرتها الباردة تلك لم

تكن كسابقاتها أبدا..لم تنظر إلي. ولم تنظر من خلالي أيضا.. كيف يمكن وصفها.. لا! ليست نظرة سخرية أو لامبالاة. أو نظرة احتقار.. لقد كنت شديد الملاحظة والتركيز حينها.. وأكثر من أي وقت مضى.. وأكثر من أي شيء غرابة في حياتي شعرت أن هدير لم تكن تنظر إطلاقا.. لقد كانت عمياء مبصرة.. شعرت أنها لم تكن نظرة بشر.. بل لم تكن تنظر أصلا.. يمكنك أن تتخيل نفسك تتحدث مع بشر منزوع الروح.. تلك كانت حالتي مع هدير في تلك اللحظة.. لقد تحدثت مع جسد مجوف بلا مشاعر ولا أحاسيس ولا شيء..

في النهاية أدركت أنها فتاة واقعية لدرجة عليا لا يمكن لمثلي تخيلها. إلا أنه كان ل'' آه عذرا.. لا أفهم ما تعنيه إطلاقا يامراد'' وزن ثقيل جدا. على سمعي وصدري. لقد كانت ضربة قاسمة بالنسبة لي.. ما تسمى، القشة التي قسمت ظهر البعير، وأنا البعير هنا، ليس بقوته بل بعقله، بعير أحمق أو غبي، ربما حمار، آه لقد كنت حمارا حين رسمت تلك الصورة المزركشة الغبية، الأحمرة لا تحب لكنني كنت حمارا عاشقا. شيء من هذا القبيل.. تلك الفتاة لم تحتقرني ولكنها خلقت بكلماتها فجوة بيننا تسع الكون بأكمله.. لقد برعتْ حقا بصنع فجوة بذلك الحجم. وتذكر تلك المحادثة المقتضبة للآن يزيد من حجمها. وعدم خروج تلك المحادثة من نطاق تفكيري وعالم أحلامي وأوهامي يعتبر معيارا كفؤا لتقدير مدى سرعة اتساعها.

عدت لشقتي أقنع نفسي أنه لم يحدث شيء غير اعتيادي. مرارا وتكرارا بيد أنها لم تقتنع. لم أكن أنتظر منها أن تكون صديقتي المقربة أو أن تحبني كما أحبها.. لم أكن أنتظر شيئا منها على الإطلاق. من جهة ثانية لم أكن أنتظر تلك المحادثة البائسة بيننا.. شعرت أنني لم أتحدث أصلا.. فقط تمتمت ببعض الكلمات الغبية.. ليست غبية في نظري بل هي ترجمة لما أنا عليه حقيقة، غير أنها ستكون شديدة الحمق والغباء بالنسبة لعامر..كان شعار الكوب قبل الكلام منسوبا إليه وأعتقد أن به شيئا من الصحة. ربما كان علي أن أعطيها شيئا مما تشتهيه البنات قبل محادثتها.

لا يمكن للإنسان مهما بلغ علمه أن يتوقع المستقبل بشكل كامل ،هنالك دوما شيء مخفي محرم عليه أن يراه. فمهما تخيل المرء شيئا سيحدث ويرسمه في عقله بصورة يعتقد أنها كاملة حين يراها بعيني خياله يدرك فيما بعد حين يرى الواقع بعينيه الحقيقيتين أن الأمر مختلف تماما، كل شيء مرتبط بآخر وكل جزء يؤثر على جزء آخر. تخيلت قبل محادثتي مع هدير أن يكون الطقس مشمسا حينما نجلس صباح الثلاثاء على الصخرة مربعة الشكل معا بين شجرتي الأرز وشاءت الأقدار أن نجلس داخل المكتبة في وقت متأخر

من النهار. يؤثر هذا التغير في نبرة الصوت وفي صور الأشياء وتأثيرها. كل شيء بارد حتى وجهها، كالبرد الذي تحمله الطاولة، لم ألمس وجهها قط في حياتي أبدا غير أنه بارد، من جهة مادية وأخرى معنوية.. لكن ما معنى أن ترفضني بتلك الطريقة؟ لم أفهم مالذي تريده تماما، وفي الحقيقة لم أدر أنا نفسي مالذي أريده بالتحديد! غير أن هنالك شيئا أحتاجه. نعم! أردت أن أكون معها وأردتها أن تكون معي. هذا ما كنت أريده تماما.

عندما يتأكد أحدهم أنه في مشكلة تتعلق به فإنه يبدأ بالبحث عن سببها، فهي إما تأتت من العالم الخارجي أو إن منطلقها الأول هو الشخص ذاته.. هنالك تفاوت بين الجنسين بالنسبة إلي ،يتمثل هذا التفاوت في حجاب رقيق منسوج من طريقة تفكير الأشخاص وميولاتهم وتعريفات الأشياء بالنسبة إليهم ونظرتهم نحو اللاملموسات كالمحبة والكراهية وغيرها.. إنه شيء نادر أن أعترف لشخص كوني أحبه، أو هي المرة الأولى التي أعترف لفتاة بمشاعري تجاهها. أو هي المرة الأولى أن تكون لدي مشاعر كتلك تجاه بشر. لقد أدركت من قبل أن حبي لهدير لم يكن من أجل جسدها بل من أجلها هي.. أف لا أريد التفكير بهذه الطريقة. في حالتي هذه لا أريد التفكير مطلقا. أود الهدوء وأريد أن أكون ساكنا، في داخلي وخارجي. كسكون الغابة الصنوبرية، كسكون نعاجي ،لمرة واحدة بحياتي، وليس بسبب هدير أو محادثتها الفظة معي لكن بسبب التفكير الزائد، وددت أن لو لم أخلق من قبل وتمنيت لو كنت نسيا منسيا.

ضاقت بي شقتي وضاقت بي نفسي تلك الليلة فرأيت أن أزور محمد، وقد فعلت.

لم يهتم هذا الأخير بما أخبرته حول محادثتي الغبية مع هدير. قال أنه علي نسيان الأمر، أو نسيانها هي إن اقتضى الأمر. وأن النساء في هذه الدنيا كثيرات ولن تتوقف الدنيا على فتاة مثلها.. ولما قلت له أنني أتمنى الزواج بها ابتسم قليلا وقال ''.. الحب ليس أساسا تبنى عليه الأسر يا صديقي.. إنس الأمر فحسب. ثمة أشياء الآن أكثر أهمية من فتاتك تلك وأولها دراستك وثانيها عملك.. ثم تذكر الهدف الذي أتينا من أقاصي الأرض لأجله. فلا تجعل شيئا كهذا يفسد عليك أحلامك. لا أقول أنه ينبغي عليك قطع علاقتك معها.. لا! صدقني يا مراد، أن تكون هدير صديقتك خير لك من كونها حبيبة أو ماتتمناه..''.

لم يكن علي إخبارك بشيء أصلا يا محمد.. أنت لا تفهم شدة محبتي لتلك البنت أيها الغبي ولا أعتقد أن شخصا مثلك لا يفهم في المشاعر شيئا

يستوعب هذه الأمور. أتعتقد أنه من السهولة بمكان جعل هدير صديقتي بعد أن تمنيتها حبيبتي أو زوجتي؟

الفجوة بيني وبين صاحبة المكتبة تمنعني من التكلم معها ثانية فلما خرجت من عند محمد وعدت لشقتي في وقت متأخر من الليل أخذت ورقا خشنا شديد البياض وتناولت قلما جافا، فتحت النافذة المطلة على أسوار المعهد الجنوبية وشرعت بالكتابة.

'' تعلمين من أنا الآن أليس كذلك؟ نعم أنا صديقك مراد، وصاحب الرسائل التي تلقيتيها من قبل. ولا أدري أكان موقفك مساء أمس بالمكتبة بسبب الصدمة جراء معرفة مصدر الرسائل القديمة أم بسبب انفعالك من كلامي بالرغم من أنني لم أر بك صدمة أو انفعالا قط ،لا أدري ماذا سأقول لك في رسالتي هذه، لماذا لا نجعل الأمور أكثر وضوحا يا هدير، أخبرتك أنني أحبك ولم يكن لك من رد فقد اكتفيتِ بالصمت والضبابية التي حيرتني ولقد علمت من قبل أن هنالك لغة لا تترجم للغاتنا غير أن الجميع يفهمها وكلمتَيْ نعم ولا هما المفردتان الوحيدتان بهذه اللغة، بيد انك لم تنطقي بأي منهما.

حسنا، دعينا من هذه المقدمات ولنختصر الأمر، أحبك وأريدك أن تكوني معي يا هدير، وأريدك أن تكوني حبيبتي فهل ستقبلين أم ترفضين؟ ينبغي أن نلتقي ونتحدث، هذه الرسائل الغبية لن تجدي نفعا.. ''

سقط القلم من يدي اليسرى المرتعشة فراقبته يغوص في حوض سباحة بباحة العمارة توشك أن تتجمد من شدة برد ليالي الشتاء الأولى. أغلقت النافذة ولففت الورقة ثم ربطتها بخيط رفيع أحمر اللون داكنا.

لم أصدق جلوسها على يساري بالفصل صبيحة الجمعة وهي صاحبة موقفها قبل ما يقل عن العشرين ساعة. كعادتها ،لايرتسم شيء بوجهها مهما تغيرت المواقف، فقط سكون باهت، عينان ناعستان، ملامح أقرب للإبتسام.

- لم يخبرني صديقك عن اسمه بعد.

- ماالداعي لذلك يا هدير. إنه رسول بيني وبينك، لا أكثر

- رسول؟ رسول الحب..

- هكذا أحببت أن تكون الأمور

كانت الورقة الخشنة الملفوفة بين يديها وبحسب ربطة خيط الرسالة تيقنت أن هدير لم تقم بفتحها بعد وهاهي تفتحها لكي يقرأها كلانا..

- ما من داع لهذه التفاهة الآن ياهدير..

قلت ذلك بصوت متقطع يدل على خجل كان قد اعتراني

بنظرة جانبية بعينها اليمنى الخضراء لمحتني وهي تفك الرباط ثم قالت

- تقول أنها تافهة، وأنت من كتبها؟ هل أنت صاحب الرسائل حقا أم هو رسولك؟

ابتسمتُ للحظة ثم انحسرت ابتسامتي حينما شرَعت في قراءة الرسالة بصوت مرتفع فهززتها من كتفها بلطف مشيرا أن الجميع سيسمعها.

- ستفضحينا هكذا؟ ثم ضحكت أنا ضحكة بها شيئ من سعادة

- مالمشكلة؟

- نحن بالفصل، هل نسيتِ ذلك؟

- ليكن!

- لا أريد أن يعلم أحد أنني أحبك ياهدير. لنخرج من هنا

- إلى أين؟

- الصخرة بين شجرتي الأرز مكان مناسب، هو مشمس على الأقل.

- حسنا، لنخرج

وخرجنا..

بدأت تقرأ كلماتي ببطئ

- '' تعلمين من أنا أليس كذلك''

هزت إصبعها وقالت

- نعم

تابعت فتاتي الجميلة القراءة ثم لوهلة رمت الورقة جانبا.

- دعني من هذا. أخبرني مالذي تريده من كتاباتك تلك، لقد قرأت رسالتك القصيرة هذه قبل ساعة من الآن ثم أعدتها على شاكلتها.

- أحبك

ثم ماذا؟ لقد سمعت هذا مساء أمس.

- أهو أمر اعتيادي أن يخبرك أحدهم أنه يحبك؟

- ليس كذلك.

- إذا!

- ذلك ليس كافيا، ثمة ما يريده المرء من محبوبه غير حبه له

- أريدك أن تكوني معي.

- أنا معك.

ضحكت ثم قلت

- هل تفهمين ما أعنيه أم تريدين أن تجعلي مني أضحوكة أمام نفسي؟

- كيف أبدو لك؟

- تبدين حبيبة قلبي

ابتسمت ابتسامة رضى وأضافت

- ثم كيف؟

- تبدين ربيع حبي

- ثم كيف؟

- رمز حياتي

قالت بتدبر وهي تضع خنصر يدها اليسرى على شفتها السفلى

- ربيع الحب، رمز الحياة! لا أدري أين سمعت هذه العبارة من قبل.

- ما يهمني أنك سمعتيها مني أنا يا حياة قلبي.

ضحكَت فشعرت أنها حركت قلبي من مكانه.

قالت

- لديك حس رومانسي عال أيضا..

- أيضا؟

- كنتَ شديد الإنفعال مساء أمس فخلت أنك شخص عصبي

- لماذا تصرفت ذلك التصرف ياهدير؟

- أي تصرف؟

- دعينا ننسى الماضي والننظر الآن للمستقبل عزيزتي.

- هكذا سأنسى بدوري أنك شخص عصبي.

- لست عصبيا أبدا

- نظرة الناس تجاهك مختلفة عن نظرتك لنفسك.

- إن كان ذلك رأيك فسأكون سعيدا

- سعيد لأنك عصبي؟

- إن كان هذا يسعدك

- هل تعرف ما يسعدني؟

- أخبريني وسأسعى لتحقيقه من أجلك

- وجودي معك يسعدني

- لا يمكنني التصديق!

- تصدق ماذا؟

- أأنت من تقولين هذا؟ وأنا من أحبك حبا لا يمكن لأحد تصوره؟

- كيف أحببتني لهذه الدرجة؟

- لإن قرأت رسالتي الأولى فأنت تعرفين ذلك

- لا بأس أن تعيد تحرير رسالتك لتكون منطوقة لا مكتوبة، أريد أن أسمع منك ما قرأته عنك.

- من أين سأبدأ؟

- من حيث تريد.

- هل هذا حقيقي؟

- أي شيء هو ؟

- لم أتوقع أن نتحادث هكذا مطلقا؟ لقد تجاوز الأمر كل أماني، سأكتفي بأن أقول لك أنك كنت شيئا كبيرا لم يكن لحياتي وجود لولاه واليوم ها أنا ذا أدرك أنك حياتي بأكملها. أنت ياهدير أثمن من كل شيء.. يا إلهي، أعجز أن أعبر عما في داخلي تجاهك يا حبيبتي. فهل من كلمات تجتمع فتترجم حبي كلاما؟ أخبريني.

تناولتُ يدها اليمنى الملونة أضافرها بلون فضي لامع فقالت بشيء من الخجل

- كيف تتمنى مستقبلك يا مراد؟

- هل تحبين غابة الأرز خلف سور المعهد؟

- أعشقها.

- هل تتخيلين نفسك صاحبة قصر يتوسط هذه الغابة فوق التلة المطلة على البحر ؟

- يوما ما!

- سأبني قصرا هناك كما لم يبنى بناء مثله من قبل، وفوق تلك التلة سيكون مسكني..

إبتسمت معجبة ثم أمسكت يدي اليمنى بين كفيها.

- رائع!

- هو مجرد حلم بعيد المنال. لكنه على الأقل حلم. ولعله بمعجزة يتحقق.

- كيف تريده أن يكون ؟

- القصر ؟

- نعم، بيتك المنشود.

- ستكون جدرانه رخامية بيضاء ثلجية ،وستكون غرفة الإستقبال عبارة عن بيت زجاجي وسط القصر تتوسطه نافورة تنحدر مياهها إلى كامل الأرضيات الفسيفسائية المغطات بالزجاج حتى يحسب الناضر أنه بنهر جار فوق الأحجار الكريمة. ستتجمع المياه يا هدير خارج القصر ببحيرة صناعية تحوي جميع أنواع الأسماك. ستكون بالطابق العلوي من القصر شرفة

سداسية الشكل تطل من ناحيتها الشرقية على البحر وعلى جميع نواحي الغابة من جهاتها الأخرى. سيكون به مئات الغرف وعشرات الخدم. أما بالشرفة الأمامية سيوضع تمثالا أسد ينفخان ماءا يشع به ضوء الشمس طيلة النهار فينعكس قوس مطر داخل القصر ويصيره دائم الألوان. ستكون هنالك ثرية عملاقة معلقة بقبة القصر ذهبية اللون تضيء جميع أركان المكان. أما الأثاث فستكون كل قطعة من أجود الأنواع، ستكون أرائك غرفة الإستقبال مرصعة بالألماس والياقوت والزبرجد. تلمع من تلقاء نفسها.. ثم سيكون به أفضل السيارات بالعالم. سيكون قصرنا أعجوبة في دنيانا.. صرحا مخلدا لذكرانا..

لا تزال يدي بين يديها وهي تستمع إلي لتقول ضاحكة

- قصرنا ؟

- بالرغم من كل هذا فهو ينقص ياقوتة من نوع خاص، أغلى الأنواع بالعالم إذ لا يوجد على هذا الكوكب سوى واحدة فقط وعندما تكون به ستجمله وتصيره كما لو أنه أتى من عالم آخر.

- أي شيء هذه؟

- لئن قلتِ من هذه لأصبتِ؟

- لم أفهم!

- أنت هي الياقوتة التي تنقص قصري يا تغريدة الحمام.

- تغريدة الحمام؟

- لا تهتمي كثيرا لما أقول..

- لقد قلت ''قصرنا'' قبل قليل!..

- لو حدث ذلك بالفعل فهل تقبلين أن تكوني تلك الياقوتة يا حبيبتي؟

تهدت هدير تنهيدة عميقة توحي بالذهول وضغطت بكفها على أصابعي ولما أصبحت قادرا على النظر تجاهها مباشرة دون الإشاحة بعيدا لشدة حسنها قبّلتُها. ثم ما يسعني أقول بعد ذلك أو أصف. وصفي لحبيبتي هدير لم يكن كاملا ولن يكون كذلك أبدا من شدة حسنها فكيف أستطيع وصف أفضل موقف أكون به في حياتي مع أحب الناس إلي. كانت القبلة لذيذة لدرجة لا نهائية وشعرت أن الزمن توقف في تلك اللحظة، لم يكن هناك بدايات ولا نهايات لتلك اللحظة وأرواحنا مثل أجسادنا قد التقت أخيرا.

إنسدل شعرها الأبيض الرمادي على ساعدي الأيسر فشعرت ببرودة أقراطها كما يدها على رقبتي.

حدقت بالشجرة العجوز على يساري بينما كانت هي تعيد ترتيب شعرها.

- لم تجيبيني بعد.

التفتت ناحيتي مبتسمة ماتزال ترتب شعرها وقالت

- مالذي تتخيله أنت؟

- هل سيأتي اليوم الذي تكون إجاباتك فيه واضحة بسيطة؟

- هل سيأتي اليوم الذي نتزوج به يا ترى؟

- أجل

- سأكون ياقوتتك المنشودة حينها يا حبيبي

- سأكون أسعد الناس بذلك يا حبيبتي

تناولت يدها الباردة ووضعت كفها على صدري. وقد كانت باردة. مثل برودة الطاولة بجانب سرسري التي أضع عليها يدي.. في الحقيقة لم يحدث شيء من ذلك قط ولا أظنه سيحدث يوما. فقط سرحت بخيالي بعضا من الوقت. آه لو يحدث ذلك فعلا. هدير الآن نائمة وشخص بائس مثلي يتخيل أشياء يدرك جيدا أنها لن تحدث مع شخص مثلها. يكفيني أن أحادث هدير بأي موضوع. فهل تراني بالغت بالتخيل كثيرا؟ أظنني فعلت.. ستكون نهاية العالم بشكل من الأشكال لو قبلت تلك الفتاة. أما فكرة القصر فلا بأس بها.. هل تعيد هدير التفكير في الأمر ياترى لو أنها علمت أنني أملك قصرا مثل ذلك البيت؟ لو علمت أن ذلك سيحدث فسأبدأ الليلة برسم مخططاته. جذبت يدي ناحيتي حتى لا تتجمد من البرد

وسرح خيالي من جديد ناظرا تجاه النجوم من خلال النافذة الزجاجية الكبيرة وهاهو عقلي الخرب يسبح في خيالاته كما يفعل ذلك كل ليلة.

صبيحة الجمعة ألقيت الورقة الخشنة على الموقد ولم يزل بإمكاني قراءة خطي بها حتى صيرتها النيران رمادا.

صعدت فوق سطح العمارة بعد ذلك بساعة.

إنصرفت قاصدا محطة الأنفاق. نزلت بمركز المدينة حيث تتراص ناطحات السحاب اللامتناهية بارتفاعها ويكثر السياح الغربيون بصفرة شعورهم وطريقة مشيتهم التي تدل على وفرة الأموال والترف والرفاه، ومحلات الألبسة والأطعمة بفخامتها. إنه بالرغم من جمال هذا المكان غير أنه ليس مكاني المناسب ولست ممن يحبذون الأجواء الحضارية التي تنزع من الإنسان أشياء كثيرة دون أن يشعر.

أغوتني غابة الأرز والصنوبر برائحتها التي تأخذها الرياح ليلا ناحية مدينة العلوم فتصيرها عطرا مثلما صيرتها هدير جميلة بحسنها.. فكرت بزيارة الغابة لأيام.

عندما حملت بعضا من لوازم رحلتي نحو الغابة سقطت صبيحة الإثنين من بين يدي منشفتي كما سقطت من قبل دمعة من عيني اليسرى.. إنها تفاصيل قاتلة! سيناريوا تتم إعادة بثه في مخيلتي المرة تلو الأخرى.. لا تعجبني هذه الأحداث! ولا أريد تذكرها. أحداث مسمومة تبقى مخزنة في جزء من المخ تنهش حياة الشخص شيئا فشيئا..

لم تكن بالمريضة! أقصد عيني اليسرى. يسيل الدمع منها دون سبب. فكرت أن أزور طبيبا ولم أفعل.. مثلما فكرت لجرأتي أن أخاطب هدير أو أخطبها.. مثلما فكرت من قبل الذهاب لبيطري من أجل عصفور يتألم.. الفرق أنني ذهبت بالعصفور للبيطري فعلا. '' يوشك أن يموت.. لا ترمه بالسلة الداخلية! سيتعفن''. هذا ما قاله عندما حمل العصفور من إحدى قدميه الصغيرتين بين إصبعيه وهو ينظر ناحيته نظرة مخمور. العصفور حي وإن كان موشكا أن يموت! أليس من الأفضل المحاولة.. يرى ذلك العصفور نفسه مركزا للكون ويعتقد أن الكون كله يشعر بالآلام التي يشعر بها.. مع ذلك لايرحمه أحد.. على الأقل مسكن ألم! سيجعله يسكن قليلا.. الحيوانات لا تفكر غير أنها تشعر بالألم.. مات العصفور عصر ذلك اليوم ودفنته مثلما يدفن البشر غير أني لم أصل عليه كما يصلى على ميت البشر.. لم أصل عليه أصلا.. لم أصل على أحد يوما.. فهل سيصلي أحدهم علي عند موتي؟ بقيت لوحدي طوال بقية اليوم.

يراودني فضول حول سبب انشغال بعض الناس طوال حياتهم.. أراهم يغدون مسرعين ويروحون مسرعين ويأكلون ويشربون وهم على عجل ويتكلمون باختصار.. أليس لديهم وقت لأنفسهم؟ ثم ماهي اهتماماتهم ياترى؟ مثلما أرى. لا يهتمون بشيء. إنهم عبارة عن آلات مبرمجة لا تقوم إلا بما عليها القيام به.. شيء مخيف. أن تكون لوحدك في هذا الكم الهائل من البشر الآليين. غريب!

تلك هي الأفكار التي لا أريدها والتي ستقتلني يوما ما! بالرغم من كل هذا فهي الشيء الوحيد الذي يدور في خلدي! مللت الحديث عن نفسي وعن شعوري.

عددت مساء يومي ذاك بضعا ومائتي صفحة من ورقي الخشن وكان بحوزتي قلم جاف اشتريته من أحد الدكاكين الفاخرة بمركز المدينة.. لم تكن لدي القدرة على الكتابة وفي خلدي ما يؤرقني لأترجمه على الورق ولم أدر ماهو.

كان دفتر أوراقي وقلمي الجديد وبعض من طعام بحقيبة صغيرة على ظهري وأنا أتجاوز سور الغابة لأغيب داخل ضلماتها لو أتيح لناظر أن يراني.. ولعل أحدهم لمحني يوم الإثنين أبتعد وأصبح باهتا شيئا فشيئا حتى أنسجم مع أخضر الغابة وأسود ضلها وأبيض ضبابها وأسكنَ في سكونها.

لا يوجد أقسى من الإشتياق للحظة الأولى من كل شيء.. لقد رايت هدير لأول مرة بالمكتبة وحادثتها ببساطة.. آه نعم! إن البساطة في أول حديث بين شخصين هو ما أتحدث عنه. حيث يكون كل شخص صفحة بيظاء بالنسبة للآخر. صفحة تكتب من تلقاء نفسها لتتوضح الرؤية لكلا الطرفين فيما بعد. مكثت بالغابة أياما وحيدا دون رغبة باي شيء. أستطيع تفسير كل شيء لكن بالنسبة لمثل ما يحدث معي فإنني لا استطيع التيقن.. إكتشفت أنني لا أشتاق لهدير بقدر اشتياقي لماضي معها. نعم! إننا نشتاق للماضي أكثر من الأشخاص أنفسهم.. نبحث عن ذواتنا التي تركناها في وقت معين دون جدوى.. لست موقنا من هذه النظرية لكنها منطقية نوعا ما.. أخبرني أحدهم يوما أن المخترعين استطاعوا اختبار محاكاة لعقل إنسان كامل بحجم ملعبي كرة قدم وبإمكانه معالجة أية معلومة.. في الحقيقة أرى أن هذه الأعمال مثيرة للشفقة بقدر ماهي مثيرة للإشمئزاز.. إنهم لا يستطيعون مهما حاولوا صنع جهاز محاك لدماغ البشر. هذا شيء مستحيل لا يمكن للبشر تحقيقه. أعني أن دماغ البشر ليس مجرد خلايا عصبية بل له ارتباطات بجسم البشر وقلبه وروحه.

عندما أشتم رائحة الصنوبر الحلبي بالغابة تأخذني الذاكرة لصور ومشاهد لم أعتقد يوما أنها ستمر من خلالي. ما أريد قوله أن الإنسان شيء آخر ودماغه عالم آخر. بعض الأصوات تذكرني بروائح وبعض الروائح تذكرني بمشاهد وبعض المشاهد تذكرني بمشاعر وأحاسيس وأحلام وأمنيات ومخاوف وكل هذا يجعلني أعيش ساعات بجزء من الثانية.. تجلبني تلك المشاعر نحو الماضي وتفاصيل تفاصيله..

الإنسان يقتل نفسه بنفسه في النهاية.. حتى أفكار البشر تقتله.. لا أدري كيف يحدث الأمر لكن هنالك دائما شيء مخفي عن البشر. محظور أن يكتشف ماهيته أي احد.

إشتقت لإيمي أيضا.. تلك الأوروبية. بالفعل اشتقت لها وأود محادثتها. سأحادثها بأي شيء تريده.. كل شيء له علاقة بتلك الأيام أود الإرتباط به. محادثته أو فقط النظر تجاهه. ذلك سيعيد لي ما فقدته من ذاتي.. لكن حتى لو حادثتها لساعات فهل ستكون إيمي أو محمد أو عامر أو حتى هدير النافذة المناسبة لأستعيد من خلالها نفسي؟ لا أعتقد ذلك أبدا. الناس تتغير أيضا. لن تكون هدير قبل السنتين كما هي الآن! إنها شخص آخر. نعم ستتعرف علي بالتأكيد لكن لن تكون ما أريد. يا إلهي! أرى أنني الشخص الوحيد الذي فقد نفسه في الماضي.

إن شخصا مثلي مثير للشفقة لأبعد الحدود وأنا الذي لم يمض علي أكثر من عشرة أيام منذ كنت مع هدير بالمكتبة، فجأة أصبح الماضي يتشكل بسرعة وبدأت بالحنين لأيام الأسبوع الفارط.. إنه لأمر مضحك حتى إنه ليضحكني أنا نفسي وأنا البائس الذي لم يضحك بحياته ضحكة سعيد.. إنني ألوم الواقع وألوم الأشخاص على ما أنا به وليس غيري ما أوردني موردي هذا.. السر في حديث النفس، فهي الآمر والناهي وهي ما تحدد وجهة الشخص الأخيرة وحديثها يؤثر على كل ماله علاقة بذلك الأخير.

أصبحت الكتابة الشيء الوحيد الذي أجيده وليس لمثلي إلا الكتابة لأخرج السم الذي استعر بجسدي..

كتبت : مرحبا هدير! أجد نفسي الوحيد الذي يكتب هذا! وبين جميع البشر أكتب إليك أنت! أريد فقط أن أسألك..

مزقت الرسالة ولم أكمل السطر الأول منها. يا إلهي! هل يصعب على المرء لهاته الدرجة أن يجد ذاته بين هذا الركام من الكلمات والمشاعر والذكريات والصور والأصوات والروائح مكدسة بطريقة لا نهائية بعالم نسميه الماضي؟

بعد عشرة أيام شعرت أنني أتحسن فعزمت العودة إلى الشقة والمضي قدما. الأمر أصبح واضحا شديد الوضوح الآن وفي نهاية المطاف علي العودة للدراسة فقد أضعت منها ما يكفي. يبدوا أن كلام محمد كان منطقيا نوعا ما. أصلا.. ليس هذا هو الوقت المناسب للحزن على شيء مثل هذا. أردت إخبارها بمحبتي تجاهها ففعلت، وصحيح أنني لم أفهم من موقفها شيئا لكنني لم أكن منتظرا إياها أن توافق على كوننا حبيبين فلا بأس إذن..

سمعت من إيمي أن صديقتها ستنتقل إلى معهد أوروبي.. صدمني ذلك ففي الحقيقة، آخر شيء كنت أفكر فيه هو هذا..

رأيتها مساء الإثنين ماضية نحو سيارتها القابعة عند موقف السيارات ولما أشحت بناظري عنها، إذ لم أكن أملك الجراة الكافية للحديث معها، توجهت نحوي.. نادت فاصطنعت الصمم ولم أرُدّ، حتى إذا اقتربت مني التفتُّ إليها فراح كل ما أقتنعت به من كلام محمد أدراج الرياح.. كانت أجمل مما تركتها من قبل وأحلى. كانت براقة.. كانت أفضل شيء أمكنني رؤيته. إنها قبل كل شيء هدير. التي أحببتها ولا أزال. أدركت في تلك اللحظة أنني مهما حاولت إقناع نفسي بما أظن أنه صواب لن تقتنع بفكرة نسيان هذه الفتاة. وعلمت حينها أن المستحيل الوحيد بالنسبة لي هو الإعراض عنها.

إبتسمت وقلت

- مرحبا

- كيف حالك.. تعال اجلس.

بين شجرتي الأرز جلسنا وعلى تلك الصخرة كان علي فراقها وقُدّر أن تكون آخر اللحظات التي أحدثها فيها هناك..

قلت

- سمعت أنك ستنتقلين لمعهد أوروبي

- سأسافر غدا

- متى؟

- إشتريت التذكرة صباح الأمس، الطائرة ستنطلق عند منتصف نهار الغد.

- أتمنى أن توفقي في دراستك، لقد انقضى نصف السنة الدراسية، فأتمنى أن تتأقلمي مع مناهج الدراسة الجديدة هناك.

- شكرا، بالتأكيد ستكون الأمور على خير ما يرام.

- متى سيتسنى لك العودة؟

- حقيقة لا أدري متى يكون ذلك

- أرجوا ألا تطيلي غيابك عنا، سنشتاق إليك

قالت بلهجة من يدعي المرح

- سأُنسى بينكم في النهاية فأشباه المرء كثيرون

- ليس صحيحا يا هدير، لكل شخص مكانته في هذا العالم

- ليس عمليا

- هل بعت جميع مؤسساتك وعقاراتك هنا؟

- لم أبع أيا منها بل كلفت مدير أعمالي بالإشراف على سير شؤونها

- إلى متى؟

- كما أخبرتك، إلى وقت غير معلوم

- هل أنت مضطرة للإنتقال هناك لهذه الدرجة؟

- أجل، أنا كذلك

- أليس من السخرية أن تسافري من هذا المكان بعد يوم من عودتي أنا إليه؟

- مر وقت طويل لم أرك به، أين كنت؟

- أأنت من يسأل؟

- ماالذي تعنيه؟

- أترين حضوري أو غيابي مهما حتى تسأليني مثل هذا السؤال؟

- ماالذي تقصده؟

- تعرفين جيدا ما أرمي إليه لكن هذا أسلوبك، ولقد اعتدت عليه..

مددت يدي حتى لامست خصلات شعرها وأضفت

- هكذا أنت يا هدير، تدعين دائما عدم استيعاب أي شيء حتى تتهربي من المواقف التي لا تودين الوقوع فيها.. كأنك لا تدركين أنك أحب إنسان لدي.. أليس الأجدر أن تميلي للطبع البشري وإن قليلا؟

لم تلقي بالا ليدي في البداية، فقد أطرقت برأسها أرضا لتقول

- آسفة يا مراد، هكذا ينبغي أن تكون عليه الأمور

وضعت كلتا يدي على كتفيها

- هدير، لا، لايمكن أن يكون ذلك صحيحا، هذا فهم خاطئ من جانبك.. آه لو تعلمين شدة محبتي تجاهك أيتها الحمقاء، لعدت عما تعتقدين، أريد أن أكون صريحا. أريدك يا هدير، عليك أن تفهمي هذا جيدا.. أهواك مذ رأيتك أول مرة وحقا يا فتاة، أريد أن أحيا بالقرب منك..

- هل تعتقد أن الأمور في هذه الحياة تجري على هذا المنوال يا مراد؟

- بلى هي كذلك، وإن كانت غير ذلك فمالذي يمنعنا من تطويعها؟

- كيف؟

- أريدك زوجة لي يا هدير، فهل تقبلين؟

- لا نزال صغارا على شيء إسمه زواج

- هدير، حبيبتي، أرجوك.. من أجل الأيام الخوالي، من أجل أن نسعد، أنا أحبك، هل تفهمين؟ أريدك! هل تدركين؟ أهواك! هل تنصتين؟ منذ الأيام الأولى، قبل شهور.. هدير أرجوك لا تسافري، أنا أناني الآن، ومن أجلك سأكون لآخر حياتي كذلك.. فلا تتركيني وتذهبي كأنني لا أعني لك شيئا.. أتذكرين؟ حين حدثتني عن الشعور الذي يسبق التفكير الجاد في الإنتحار؟ إنني على وشك الإنتحار فأرجوك.. أتريدين أن أبكي الآن بين يديك حتى توافقي؟ أهذا ما تريدين؟ قسما سأبكي إن كان الأمر كذلك.. إنك حياتي يا هدير وعمودها الفقري فكيف يسعني أن أفارقك؟ أرجوك، تزوجيني يا حبيبة قلبي، أرجوك اقبلي بذلك.. هدير..

أبعدَت يداي من على كتفيها بلطف محاط بنظرة كانت أقرب شيء بالشفقة وقالت

- آسفة يا مراد، ثمة أشياء كثيرة عني لا تعرفها، لماذا لا تريد أن تفهم ذلك وتستوعبه كالعاقلين؟ أنت شخص مهما طالت صداقتنا، غريب عني، ولا تعرف عني شيئا أبدا، أتعرف حقا من أنا؟ ومالذي أحبه؟ ومالذي أكرهه؟ أُصدق أنك تحبني، وأحترم ذلك.. لكن، مادوري أنا في عاصفة المشاعر التي تجتاحك؟ تقول أنني غير طبيعية لكنك أنت الغير طبيعي.. أن تطلب الزواج ممن أعجبك مظهرها أو تصرفاتها! الحياة ليست بهذه البساطة.. والحب لم يكن ميزانا لها يوما. والنفترض أنك نلت ما تتمناه وتزوجتني الآن، فماذا بعد؟ هيا تكلم! ماذا بعد ذلك؟ أستكون مسؤولا عن عائلة وعمل أم لا؟ أسنكون مستقرين كما تأمل؟ لا زلنا صغارا الآن على مثل هذا، وقد أخبرتك عن هذا مرات عديدة فافهم أرجوك، ربما يكون ذلك ممكنا يوما ما،

لكن الآن، وهذه التصرفات العقيمة منك.. لا سبيل لذلك، إستوعب ذلك جيدا يا رجل. لماذا تصر على أشياء تجهل تنائجها؟ ولماذا تريد مرارا وتكرارا أن تحرج نفسك وتحرجني..

قاطعتها صارخا ولم أظن يوما أنني سأصرخ في وجه من أحب لتلك الدرجة

- كان عليك إخباري منذ البداية أن لديك عشيقا.

- لو كنت كذلك لأخبرتك عندما سألتني من قبل. الأمر لا يتعلق بك ولا بأي شخص آخر إنما..

- قولي لي مالسبب إذن. ماهي الأشياء التي لا أعرفها عنك؟

- آسفة يا مراد.

- أرجوك يا هدير مالذي يمنعك.

- ليس لك أن تعرف.

- كيف يكون ذلك منطقيا؟ أرجوك يا هدير، ألا تصدقين أنني أحبك، ألا يمكنك الإيمان ولو قليلا بشعوري تجاهك؟ ألهذه الدرجة تُعرِفين هذه الأشياء.. ألم تقتنعي بعد بكل ما قلت وقد وردتك تلكما الرسالتين مني، نعم، تلك ليست رسائل شخص مجهول، بل هي كلماتي أنا.. الرجل الذي أحبك كما لم يعشق أحد من قبل أحدا.

- عن أي رسائل تتحدث؟

- ماذا؟

- أية رسائل؟

- أرجوك، قولي أنك تمزحين.

ظلت صامتة حتى أجبرتني على الصراخ مجددا

- هدير ما بالك؟ ما هذا الأسلوب الذي تنتهجينه معي؟

- لا يوجد شيء غير مفهوم يا مراد، لم تردني أية رسالة شبيهة بما تتحدث عنها.

- أحقا ما تقولين؟

- أنا لا أكذب. لا شيء يجبرني على الكذب.

- إذن ؟

- إذن ؟!

- كيف باستطاعتي تصديق ما تقولين

- لست مجبرا على ذلك ففي النهاية أخبرتك بما لدي

- لكنني كتبتها بعناية فائقة.

نظرت لساعتها وقالت

- علي أن أذهب الآن، الوقت متأخر

وهمت بالرحيل

- هدير أنا آسف

- مالذي يجعلك تتأسف الآن ؟

- مذ أن عرفتك ولساعتي هذه، آسف من أجل كل شيء ضايقك أو أرقك له علاقة بي أو بغيري.

- لا بأس عليك

- هدير.. إهتمي لنفسك جيدا هناك.

- سأفعل، شكرا.. لا تجعل الموقف دراميا لهذه الدرجة يا رجل!

- هدير.. أحبك.

إكتفت بالصمت

- علي لا ألقاك بعد يومي هذا، فاهتمي لنفسك أرجوك

- آه..

- غدا عند الصباح، هل تنتظريني عند موقف السيارات هذا ؟

- لماذا ؟

- أود توديعك قبل سفرك

- ولكن..

- خمس دقائق فحسب، معروفا منك يا هدير.. لن أطلب منك أي شيء، ولن أزعجك بما أزعجتك به قبلا.. أود توديعك فحسب. هذا كل ما في الأمر.

بعد تفكير مطول منها إبتسمت كما تفعل دائما وقالت مربتة على كتفي

- سأفعل.

- هل هذا وعد؟

- أخبرتك أنني سأنتظرك غدا صباحا فتعال بسرعة، عند الثامنة.

- شكرا يا هدير.

- لا بأس

ناديتها لما همت أن تركب سيارتها

- إنتظري!

- ماذا هناك؟

قالت ذلك وقد شغلت المحرك

- ستسافرين لبلاد بعيدة وتتركيني هنا إذن..

أضفت

- لكن.. سأنتظرك حتى تعودين مجددا، ولو بعد عشرات السنين، وعندها.. علك تغيرين رأيك فنتزوج

قالت ضاحكة دون أن تلتفت إلي حيث كانت تنظر إلى المرآة حتى يسعها رؤية السيارات المارة

- عل ذلك يحدث فعلا، من يدري؟

ثم انطلقت ببطئ في البداية حتى قاربت الطريق السريع

ناديت من خلف السيارة

- ستأتين غدا، أليس كذلك؟

- أخبرتك أنني سأفعل

- قولي أنك تعدينني

أخرجت يدها اليسرى من نافذة سيارتها وأشارت إلي بخنصرها. ولما دخلت الطريق السريع انطلقت مسرعة.

مكثت أراقب سيارتها الفخمة سوداء اللون حتى تظاءلت شيئا فشيئا، حتى اختلطت مع شبيهاتها من السيارات، حتى غابت إلى ما انتهى إليه بصري.

لما عدت للبيت شعرت برغبة في كتابة رسالة وداع إليها، وليس عبر بريدها الإلكتروني أو البريد السريع بل سأعطيها إياها بنفسي غدا حتى أتأكد من أنها وصلت.

كتبت:

" لن يكون المكان بغيابك كما عهدتُه سابقا لكن علي إكمال دراستي هنا.. وسأنتظرك.. ومهما طالت سنين غربتك عنا فحتما سيأتي اليوم الذي فيه تعودين لوطنك. وعندما يحدث ذلك، سأكون سعيدا، فكوني بخير.. أحبك".

راقبت الموقف الذي هو على مرمى بصر مني بعضا من الوقت حتى ابتل ساعدي ببعض من قطرات الندى.. البرد صار لافحا والمكان متجمد ولا قوة لي للبقاء هناك. السماء سوداء ثقيلة علي كأني من يحملها والسحب المارة الواضح بياضها بفعل نور القمر المكتمل كئيبة. شعرت أن هذا المكان ليس مكاني. أنا ريفي ولا يطيب عيشي هنا، فإن كان كذلك من قبل فرحيل هدير عنه سيجعله غير ذا قيمة. أصبح الهواء البارد ثقيلا أيضا. ومع مرور الدقائق تصبح المباني في مدينة العلوم كئيبة أكثر وناطحات السحاب في مركز المدينة أشباحا أزلية أبدية. تظهر الثريا بين حين وآخر كلما تنحت الغيوم عن مسار رؤيتي إياها.. ثم اشتد البرد القارس وتجمعت الغيوم فاشتد الظلام ومع هطول أول قطرة مطر نزلت إلى شقتي حتى أكمل طقوسي من على النافذة.

صباح الثلاثاء.. لم تخلف بوعدها وأتت.. لكنها أخلفت به ولم تأت.. رأيت سيارتها مركونة عند المدخل معطلة بقية السيارات، ورأيتها هي أيضا ولم أرها في الآن ذاته.. وبعد برهة من الزمن أدركت أن مسعاي في لقياها ضرب من العبث ومناي في الزواج بها لم يكن سوى حلم بعيد المنال.

في النهاية، كتب الله لنا ألا نلتقي بعد عشية الإثنين ومنع أن نتواصل مرة أخرى.. آثرت صاحبة المكتبة أن نفترق على طريقتها هي، أو ربما على طريقة القدر. كانت بين خيارين لا ثالث لهما، أن تودعني أو ألا تفعل. ولقد آثرت

السفر بعيدا لحيث لا يمكن لمثلي اللحاق بها فلعلها سئمت من ملاحقتي إياها.. لكن، أن تفارقني بمثل هذا أمر خيب أملي. وجعلني حزينا.. لكن أتعلمين يا هدير؟ بالرغم من كل ذلك، للآن أحبك.. ولوقت طويل لم أصدق أنك رحلت دون توديعي مثلما وعدتني فلبثت على مرمى حجر من المكان الذي اتفقنا الإلتقاء به منتظرا إياك.. أياما، شهورا وأعواما.. فلم يرق قلبك فتأتي لزيارتي ولو بعضا منك. وإن كان طيفا، أو صوتا، أو روحا، أو بعضا من روح فتؤنسني..

تُرى، أين أنت الآن؟ أتساءل عما تفعلينه في هذه اللحظة.. ربما.. تكونين كعادتك، ساكنة! على أنك صرت مختلفة بعض الشيء.. من قوم آخرين.. أولئك الذين نناديهم ولا يستجيبون، ويسمعوننا ولا ينطقون. تركوا جرحا فينا لا يمكن للأيام محوه ولا مع الأحداث نسيانه. ولقد حل بنا ما حل فصُدمنا وبادئ الأمر تباكينا ثم صرخنا وبكينا ثم سخطنا.. وسخطنا وللحظة رضينا.. وصور ومواقف مرت علينا، وأحداث وكلمات وصرخات وضحكات وحزن وفرح وهتافات فصار بكاؤنا نواحا ثم عاد نحيبا ثم لِحظنا بكينا، ولفقد من فقدناه بكينا ولبكائنا بكينا وكررنا ما نحن عليه وصرخنا وسخطنا وغضبنا فضربنا الجدار بأيدينا، وبأرجلنا ركلنا، وجلسنا ووقفنا وقفزنا وجرينا وسقطنا وتدحرجنا وضربنا الأرض برؤوسنا حتى انهرنا وأضلمت الدنيا علينا، فدموع اليأس أنهار جارية، وبعد طول بكاء عادت أعيننا لفرط ما سكبت كعين آسنة.. لا نعيم ولا حياة، لا جحيم ولا ممات ولا ما يتمناه المرء في تلك اللحظة مما هو حتما آت آت، فهيا يا موت زرني ولا تمهلني فعلك ترى مما أنا عليه من حال فتشفق علي وتُلحقني بمن سبقني من أهل القرون الأولى..

من ذلك اليوم يا عزيزتي، وقد مضيتِ وأيامي معك، خُلّفت في أيام أُخر كرهتها لفرط ثقلها وبُهُوتُها ومرت غير آبهة بي ولا بك.. فالكون نواميس والحياة إحداها والموت منتهاها والأرواح الشاقية عالقة بين هذا وهذا لا تدري أي الطريقين لصاحبها خير مقاما وأحسن نديا. الهم أخذ مني مأخذا عظيما يا هدير، والكرب ألبس روحي شقاءها والحنين أفقد عقلي صوابه فصرت كالمجنون وها أنذا المجنون الآن أكتب لك ما أكتب وإني لأدرى الناس بمنتهى ما أفعل.. لامعنى ولافائدة ولا أصل ولا بداية ولا نهاية.

هدير هذه انتظرتها فلم تأت، وأنا أحبها بشدة، وهي الآن عارفة بذلك. إيملي عارفة بذلك أيضا.. هاتفتها مساء الجمعة، بعد يومين من ذلك النهار المشؤوم فكان أن التقينا بين شجرتي الأرز العملاقتين.. وكانت، هي التي تذكرني بهدير كلما نظرت إليها. لم يكن ثمة أي شبه بينهما فهذه شقراء والأخرى نادرة الوجود، هذه موجودة والأخرى غائبة عنا. هذه صديقتي

والأخرى صديقتي المقربة جدا، حبيبتي، زميلتي، حياتي، أولي وآخري وماضي وحاضري وكوني وأحلامي وآمالي وحزني وكربي وبؤسي ومعاناتي ونعيمي وجحيمي وفردوسي وسقري وهمي.. هذه شيء والأخرى كل شيء.. ليس من شبه بينهما سوى أنها صديقتها المقربة أيضا. آنسني حديثها تارة وآلمني أخرى.

- مراد، آسفة

- مالذي يجعلك تتأسفين يا إيمي؟ أنا الآسف هنا، ليس أنت.. أعرف أنها صديقتك المقربة.

- وأنا أعرف أنك تحبها.

- ماذا؟ عن أي شيء تتحدثين.

أومأت برأسها أسفا وقالت

- يكفيك يا مراد، يكفي! لا داعي الآن لأن تخفي مشاعرك عني أكثر.. أعلم أنك تحبها.. لكن، يا للأسف.

صمتنا لبرهة من الزمن حتى قلت

- إيمي!

- ماذا؟

- لم أستوعب للآن مالذي حدث

- ولا أنا

- ماذا قالوا؟

- من؟

- إدارة المصحة

- هم أيضا لم يفهموا السبب، قيل أنها أزمة نفسية أدت في النهاية لما رأينا

- هكذا! بهذه البساطة؟

- ليس ثمة أي شيء منطقي. أعرف

- أتدرين؟ ما أعرفه أن أصحاب الأزمات النفسية ينتحرون، على أقصى تقدير.. لكن هذا..

- هذا ما قالوه في تقريرهم

- ألم تلاحظي شيئا غريبا عنها من قبل؟

- كيف؟

- أعني، أنها ليست شخصا عاديا منذ البداية

- لا أدري

- ألم تلاحظي ذلك السكون العجيب؟ ونظراتها.. إنها باهتة يا إيمي، مذ أول يوم أراها فيه، لم تكن على طبيعتها.. تلك ليست نظرة بشر، لا أعرف كيف أصف الأمر يا إيمي، كأنها حين تنظر إلي لا تراني، بل تبصر من خلالي.

- هذا كلام غير منطقي يا مراد

- كيف تفسرين هذا إذا؟

- أنا لا أعرف

- مالذي تعرفينه عن صديقتك إذا

- مراد، أرجوك.. كف عن هذا. لن تعيد ثرثرتك هذه الزمن للوراء.. أوتعتقد أنني بخير الآن؟ إن قلبي ينفطر، وتؤلمني معدتي لذلك بشدة، ولقد ضغطت على نفسي لأقصى الحدود حتى أتحدث عن هدير..

هل تؤلمك معدتك يا إيمي؟ أأنت جادة في ما تقولين؟ آه.. أيتها الغبية! أما أنا فمعدتي خاوية منذ الثلاثاء، وتؤلمني. ومفاصلي تؤلمني، وجسدي محطم كليا. ولم أنم ليلة واحدة وعقلي يكاد ينفجر في أي لحظة وليت قلبي تحطم من قبل، ليتها هي من حطمته، وليتها قالت لي لما أخبرتها بمحبتي إياها '' أغرب عن وجهي أيها القروي الساذج، أنا لاأحبك..'' أقسم أنني سأكون سعيدا لذلك، لكنها اكتفت بالصمت وعزمت على مواصلة ذلك إلى أن تنهار هذه الدنيا.

أنت يا إيمي لا تدرين ما مررت به في يوميَّ هذين، أتتصورين نفسك الوحيدة التي بكت؟ وهل تظنين أن الرجال لا يبكون؟ الرجال بشر يا إيمي، وكما النساء داخل صدورهم قلوب. أنا أيضا بكيت، لما رأيت جميع أحلامي التي بنيتها تتهدم في لحظة واحدة.. كأن شيئا لم يكن.. أنت لا تعرفين

شدة محبتي لتلك البنت. وصدقي ذلك أو لا تفعلي، لن يستوعب بشر على هذا الكوكب درجة محبتي تجاهها.. ثم تأتي أنت لتقولي ببساطة أنه على الكف عما أقول. هذا لن يحدث، لأنك لا تفهمين معنى الحرقة الحقيقية، ذلك السم الذي يسري في جميع الأرجاء، في الجسد والروح والتفكير والتعريفات وكل شيء.. تلك اللحظة التي يتأكد المرء خلالها أن شخصا محبوبا فارقه أسوأ لحظة في الدنيا.. لقد أحببتها يا إيمي، حبا يفوق خيالك والوصف وليس هنالك مثيل له في هذا العالم.. لم أحب جسدها وإن كان من مواصفاتها ما يسلب الألباب وتركع له الأرواح لحسنه وبهائه.. لقد أحببتها هي، الكائن الذي يسكن داخل ذلك الجسد، الياقوتة التي يظهر شيء منها في عيناها.. وشيء آخر في صوتها.. وابتسامتها.. هدير!

- إيملي، متى علمت أنني أحبها؟

- قرأت كلتا رسالتيك..

- أية رسائل؟

لم تنطق بشيء. المعتادة على إنكاري لمثل هذه الأشياء كان صمتها مثاليا للرد علي. أضفت

- إيملي! كيف ذلك؟

- قرأناها نحن الإثنتين معا.

- كتاهما؟

- كلتاهما

- هل أنت واثقة مما تقولين؟

- مالذي تعنيه؟

- أتدرين مالذي أخبرتني به صديقتك تلك عند آخر لقاء لنا؟ قالت أنه لم تردها أية رسالة عبر بريدها الإلكتروني.

- أحقا قالت ذلك؟

- وهل سأكذب عليك الآن؟

- أخبرك أننا قرأناها معا.

- كيف يكون ذلك منطقيا؟

- لا أدري يا مراد، حقا لا أفهم شيئا

- حسنا، دعينا من هذا. كيف كان رأيها لما قرأت الرسائل؟

- قرأتها بعناية

- أعجبتها؟!

- لا أعرف، ربما نعم وربما لا.

- كيف؟

- هل تعتقد أنها تعاملي معاملة خاصة يا مراد؟ علك كنت الأقرب إليها مني. لذلك، أنا لا أفهم عن تلك البنت شيئا

- كيف لم تلاحظي عليها شيئا غريبا إذن.

- إفهمني أرجوك! الأمر عائد إليها.. وهي المتحكمة في الدفة. هدير من ذلك النوع، الذي لا يترك لك مجالا لفهمه.. صدقني. لا أعرف عن داخلها شيئا.

- أهي بشر يا ترى؟

- مراد! كف عن الهذيان.

- على كل حال. لا فائدة من كل هذا الآن. لقد إنتهى الأمر.

- بالفعل.. إنتهى

إنتهى الأمر إذن! وذلك الفصل، الذي كنتِ أنتِ عنوانه صار بين طيات الماضي. ها قد سافرت الآن وابتعدت عني! ونلتِ ما تمنيتِه أيتها العزيزة فأي شيء ترين الآن وتسمعين وإن كان ثمة شيء يصلني بك فهل تعودين إلينا يوما؟ مستحيل أن ترجعي، أمثالك لا يعودون. ولا يلتفتون إلا قليلا. هم فقط، ينظرون إلى الأمام. هذا كل شيء. لا شخص يعنيهم، لا مبادئ، لا اعترافات لديهم، لا يشعرون.. لا يحبون، لا يكرهون. كانوا موجودين بيننا، وعندما حان وقت رحيلهم، ذهبوا.. النهاية..

إيملي لم تفهمك مطلقا لكنها لم تلاحظ شيئا غريبا عنك. أما أنا.. لكنني يا هدير لاحظت كل شيء، وللحظة من حياتي معك، شعرت بالخوف منك. أتذكرين؟ عندما زرتني إلى شقتي.. أحب دوما إطالة النظر إليك، وإلى عينيك الذابلتين، تلكُما الياقوتتان لو كنت عادية لرأيتُكِ من خلالهما بيد أنك غير موجودة هناك. فقط، طرف ضئيل منك.. أما باقيكِ، كأنه رحل من زمن بعيد. كأنه لا ينتمي إلى جسدك منذ البداية. عل لدي شيئا من

الإستبصار حتى ألاحظ ذلك.. فدعيني أخبرك بما أراه.. أنت يا هدير، وعندما كنت أحدثك وأنت جالسة على حائط النافذة، كنت تنظرين إلى السماء. كأنك ترين عالما يخصك لوحدك، قادرة على صنعه والعيش فيه إلى الأبد دون إذن من أحد أو مساعدة منه.. يتشكل ذلك العالم أمام عيناك ويسحرك فتستمعين إلي ولا تنصتين كمثلي وأروى بادئ الأمر.. فهاهي الأيام تكرر نفسها ومثلما تركتُ أروى بآكية غير آبه بها وخيّرت أحلامي عليها تعودين أنت لتفعلي بي ما فعلته بها.. غير أنني كنت مفهوما لكنك لست كذلك.. وعالمي مدينتي وعالمك مجهول وروحي متجمعة داخل جسدي وجزء كبير من روحك سبقك إلى عالمك الذي به تحلمين فأنى لهذا وهذا أن يلتقيا؟ وإن كان ظني صحيحا فكيف لإيملي ولي ولأي بشر في العالم أن يفهمك؟ لقد سبقك جزء كبير منك فلم يتبق إلا القليل، القليل جدا، الذي بواسطته يعيش جسدك مدة أطول. لذلك.. يا إلهي! لم لم أفهم هذا منذ البداية؟ لذلك صار الأمر ثقيلا عليك، ولهذا، كانت نظرتك ساكنة وكان بهوتا غريبا يحوم من حولك، وطاقة غير مفهومة تسري بيني وبينك.. لقد فقدتِ يا هدير أشياء كثيرة، قبل أن ألقاك حتى.. فقد عيناك نورهما فصارتا جامدتين ذابلتين وفقدت الرغبة في كل شيء.. تبكين ولا أفهمك وتضحكين.. بسيطة ومعقدة في الآن ذاته.. لقد أصبح ذلك التناقض بينك وهذا العالم أشد وضوحا حتى فقدتِ السيطرة عليه.. لأنك لم تكوني كاملة البناء إنفكَّ ذلك العقد الذي يربطك به..

لم تكوني يا هدير، تنتمين لهذا العالم منذ البداية لذلك لم يكن صعبا عليك الرمي بنا بعيدا.. هذا لأنك كنت مشتاقة لأشياء أخرى شبيهة بك. ولقد اشتد حنين آخرك لأولك فآثرت إتّباعه دون حتى أن تودعينا ثم لما لحق الفرع بأصله كان مردك إلى حيث مستقرٍ لا يعلم كينونته غير الله.

لكل شخص مكانته في هذا العالم، وإن رأى نفسه محور الكون فهو على حق.. إن إدارة المصحة بالمعهد عاهرة، لا تعنيها صحة أي شخص، هو مجرد كلام تافه يتناقلونه على الصحف والمجلات الوطنية، أن معهد الوسط الشرقي هو الأفضل في العالم العربي، المسؤولون كذابون وشر من وطئت قدماه الأرض الذي يؤتمن على صحة الناس النفسية والجسدية ويخون أمانته. يقولون أن صحة كل تلميذ بالمعهد مسؤولية على عاتقهم وقد كذبوا. أبناء الكلب يتقمصون صفة الأطباء وهم مجرد خنازير. بالوعات أموال. يدفع كل تلميذ مع بداية كل عام أكثر من مائتي دينار تأمينا على صحته حتى يكون قيد مراقبة صحية دورية.. شهريا.

لم أنو في البداية ضرب المدير العام للمعهد لكنه أجبرني.. كنت قد تقدمت بشكوى ضد إدارة المصحة وتم رفضها.. يعتبر هؤلاء المجرمون أن التلاميذ مجرد حشرات، فاليمرض من مرض واليحي من حيي واليمت من مات وليذهب من تعهدنا أن نحافظ على صحتهم ونسهر من أجلها إلى الجحيم.

أردت الحديث معه بأدب لكنه تعالى فأتيته بما لم يتوقعه.

- سيدي، ثمة ما ينبغي عليك توضيحه هنا

- من أنت

- مراد.. مراد الشرقي، جناح الإنسانيات، قسم التاريخ

- مالذي ينبغي علي توضيحه لك؟

- تقدمت بشكوى إليكم ضد إدارة المصحة، لماذا تم رفضها؟

- قلت أنك بقسم التاريخ، هل أنت مدرس أم تلميذ

- بل تلميذ

تناول ملفا من الخزانة جواره متمتما وهو يقلب الأوراق داخله

- تلميذ إذن، لنرى.. الشكايات.. يا لهذا الجيل، في أيامي لم يكن بوسع التلميذ أو الطالب أن يرفع صوته أمام أي مسؤول، أما الآن، شكايات وصداع..

كنت غاضبا جدا ورأيت أن علي ضربه في وجهه حتى يكف عن هذه الوقاحة، إذهب أنت ومسؤولوك وجيلك وأيامك الماضية إلى قعر الجحيم، هذا لا يهمني في شيء. أكبر معروف تسدوه الآن هو أن تقوموا بعملكم كما ينبغي.

قلّب الأوراق حتى أخرج إحداها

- هل أنت مراد الشرقي؟

- أخبرتك قبل قليل بذلك

نظر إلي نظرة خاطفة كأنه تفطن أنني أحترق غضبا. لبس نظارته وأخذ الورقة يتلوها ويعلق

- ''إلى سيادتكم، أنا مراد الشرقي تلميذ بقسم التاريخ المدرج تحت جناح الإنسانيات.. '' آه لنرى.. ''السبب.. وفاة أحد التلاميذ المدرجين على لائحة المرضى النفسانيين بإدرة الصحة'' و بلابلابلا.. '' الصورة أسفل الورقة''..

وضع الورقة جانبا والتفت إلي مسندا ساعديه على مكتبه كما يفعل ذلك أمثاله ممن يظنون ألا قدرة لي على تلقينهم درسا حتى يعودوا لإنسانيتهم قليلا، وقال بوقاحة شديدة

- حسنا يا.. سيد مراد، لا يمكننا تلبية هذا الطلب

- هلا أخبرتني عن السبب

- لا يمكننا محاسبة الإدارة إنطلاقا من تقرير كتبه تلميذ

- بلى، يمكنكم ذلك، هذا موقع عليه في القانون الداخلي للمعهد فما المانع؟

- نظريا، نعم، يستطيع أي تلميذ أو طالب أو باحث التقدم بمطلب شكاية ضد أي فرع أو قسم بالمعهد لكن، عمليا.. ذلك غير ممكن

- كيف يكون ذلك منطقيا؟

- أخبرتك، تقريرك ليس مطية يسعنا من خلالها التدخل في الشؤون الداخلية لأي فرع فما ظنك بإدارة المصحة وما ظنك بمحاسبتها، يمكنك الذهاب إليهم وتقديم اقتراح من أجل إعادة النظر في البروتوكولات المتبعة.

- تتكلم كأن الأمر لا يعنيك! ألا تدرك معنى أن يتوفى شخص نظرا للإهمال المتعمد من قبل المؤسسة التي ترأسها؟

- إسمعني جيدا، لا أقول أن هذا الأمر لا يعنينا، بل هو كذلك وليس ثمة إهمال من أي جهة بالمعهد فأرجوا ألا تتفوه بكلام يكون له عواقب وخيمة.

- لن يكون ثمة عواقب حينما تؤدون عملكم على أكمل وجه.

- دعني أقل لك شيئا، أدخلتك إلى مكتبي نظرا لإلحاح نائبي، فلا تعتقد أنك بهذه الأهمية عندي بمكان ولا تظن أنني سأمضي اليوم كله في مناقشة صلب رأس مثلك، تلك مشكلتك وإدارة المصحة، فاذهب وحلها بعيدا عني والآن دعني أكمل بقية اليوم على خير.

آه.. هكذا إذن، بالتأكيد لن تشعر يابن العاهرة بأهمية أي كان لكنك ستشعر بلكمة على مؤخرتك القذرة.. ضربته على رأسه بكرسي، وبقوة، دون التفكير في أي عواقب وضربني هو بدوره ولولا النائب وبعض المسؤولين في الإدارة لكنت صيرته أفضع مخلوق يُرى.. ولما رأى القاضي بعد ذلك الأثر الذي خلفه مفتاح سيارة ذلك الخنزير على وجهي لم يتم سجني وأُجبر المدير على الإستقالة وتم طردي خارج أسوار المعهد دون عودة.

حتى وقت قريب لم أشعر بالذنب لأنني تسببت لنفسي بمثل هذا جراء ذلك المدير الأحمق. لكن أتعرفين ما حدث بعد ذلك يا هدير؟ أراهن أن لو علمت ما حدث لوجدت مخرجا لي ليبعدني عن مصائبي.. لن أطيل عليك كثيرا. لقد تغيرت حياتي لاتجاه آخر تماما وأصبحت شخصا سيئا في نظر الجميع.. أنا الذي ضربت مدير المعهد فتم حرماني من إنهاء دراستي. أنا الذي أملت إكمال دراستي لبناء متحف وتحسين حياة أهلي في القرية وأنا الذي تركت أروى معرضا عنها بعد أن وعدتها بالزواج بها.. أنا الذي أصبحت عصبيا بشدة والذي كرهت نفسي بعد أن أحببتها.. أتدرين من أنا؟ أنا مراد الحالم الأحمق، الذي كسر يد أحد موظفي السوق ليُحكم عليه بخمس سنين جورا..

أنا قروي قبل كل اعتبار فلم يكن بجانبي إذن من يساعدني أو يقف جدارا منيعا أمام مد العنصرية القذر داخل المحكمة. كنت فتى أخرق لم يعهد أمثاله المكوث بين هؤلاء الأشخاص يوما. ولما فعلت لم أدر ما أفعل.. كنت أمام القاضي يصدر أحكامه فدخلت أختي ومحمد قاعة المحكمة. هي الأخرى بدورها لم تدخل مكانا كهذا من قبل. لم تدخل المدينة أصلا. ولما فعلت ذلك كان حالها معاكسا لاسمها.. إن هناء لا تجيد القراءة ولا تجيد الكتابة.. إنها لا تعرف أي شيء. حالبة العنز لا تجيد شيئا آخر غير شؤون البيت ومعاونة أمي.. لكن هذه الهناء زارتني في محنتي. لقد ارتميت في حضنها لما اقتربت مني. لم يشجعني خزيي وعاري على المنظر تجاهها، لكن بالرغم من ذلك فعلت فكانت هي الأخرى تبكي.. ''.. لقد ضللت طريقي في هذه المدينة يا مراد وسلب أبناء الحرام نقودي.. لم أفهم ما تقوله اللافتات فأنا لا أستطيع القراءة.. ماذا فعلت بنفسك يا أخي؟ وماذا فعلت بنا؟ نحن أناس مساكين.. ماكان عليك الذهاب أصلا لهذا المكان.. لقد أخبرتك لكنك لا تستمع إلي..''. آسف يا هناء.. أنا آسف حقا.. أتسمعين يا أختي العزيزة!

آسف لأنه حدث ما حدث. لم يكن بيدي حيلة. لقد كنت طفلا غبيا لا أكثر فاعذريني. وإن لم تفعلي فلك الحق بذلك..

دخلت السجن قبل أن يتم إصدار الحكم النهائي في حقي فتذكرت شيئا واحدا فقط. هدير.. أعرف أنني شخص قذر حينما يحدث لعائلتي ذلك ولا أفكر سوى في هدير. لكن ما عساي أفعل؟ علي إخبارها بما حدث فلربما تتصرف وتجد لي مخرجا من كل هذا.

كتبت

''كان في قريتنا الجبلية شديدة البرودة غزلان في ما مضى. أنا لم أرى أيا منها غير أن الصيادين يقولون أن ثمة بقية باقية لا تخرج إلى مرعاها إلا في وقت متأخر من الليل ثم حين يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر لخلق الله تدلف هذه المخلوقات إلى مساكنها. لقد عقدت العزم لأبحث عنها حتى يسعني وشخص آخر رؤيتها من قريب.. ثم لتكوني أنت يا هدير ذلك الشخص فالأقربون أولى بالمودة والمعروف. لا أدري أي قرابة بيننا سوى أننا من نسل آدم على أن قرابة الدم لا تكفي لأن يكون الشخصان متحابان، بينها مودة ورحمة ومعروف.

أخبرتني قبل وقت قصير أنك تودين زيارة غابة الأرز. لقد زرتها لوحدي وهي بالرغم من بهائها وروعتها إلا أنها لا تقارن بقريتنا وجبالها العالية وبرودتها.. فالنزر مسقط رأسي إذا. سترين أشياء تعجبك وستفرحين بشدة. سترين أمي وهناء ويرينك وبالتأكيد ستعجبان بك وتحبانك. ستجلسين داخل بيتنا، بيننا، واحدة منا.. ويمكنك رؤية النعاج مركونة في جزء من صحن المنزل.. جالسة ويمكنك النظر إلى الجبل، عليه غمام لشدة ارتفاعه. ستشعرين بالنسيم آتيا من ناحيته شديد البرودة لكنه سيكون نقيا. وأيضا.. يمكنك شم تلك الرائحة الزكية حين تهطل الأمطار فتخرجها من التراب كأنها آتية من عالم آخر. وثمة شلالات مياه أيضا.. إنها بعيدة عن القرية وبالكاد يسعك إن كنت بيننا في بيتنا يا هدير أن تسمعي بوضوح هديرها، اللهم إن سكنت أصوات القرية وثغاء أغنامها.

كنتِ فيما مضى تصلحين أخطائي الإملائية والنحوية في اللغة كلما لاحظتها فهل إن خرير المياه ذا الصوت الصاخب هو الهدير؟ مالقصد من تسمية إنسان بمثل هذا؟ أيعني ذلك أن ذلك الشخص جدير لهذه الدرجة بأن يكون شبيها بشيء مقدس كالهدير أم أن هذا المقدس ليس ذو مكانة كبيرة فلا بأس أن ننعت به بشرا؟ أما أنت فلست أي بشر وخرير المياه ذا الصوت المرتفع ليس أي صوت. وحينما سمّاك أبويك بالهدير كنت الوحيدة

الأجدر باسم مثله.. أُخبرك أن لا فتاة غيرك تستحق هذا الإسم ولا امرأة سواك بالإمكان مناداتها بهدير. لأنك لست أي شخص ليحمل آخرون اسمك. إنك إنسان مقدس محرم على أي بشر أن يُكنى بما كُتّبتِ به. أبواك شخصان ذَوي بصيرة، إذ لاحظا تفردك بصفاتك وطبيعتك وندرتك فألحقا بك خير اسم. لا أعرفهما لكنني أحبهما، اللذان أنجبا مخلوقا مثلك حتما شخصان رائعان طيبان. وعل عشيرتك ككلٍّ خير العشائر التي أنشأها الله على أرضه فأيضا أحبها وأبجلها على غيرها. لا بد أن كل شخص عرّفه الله بك هو شخص جيد.

لا أدري متى يتسنى لي لقياك مرة أخرى بعد سفرك الغريب هذا، فأترجاك حينما يحدث ذلك أن نذهب لبيت أمي في القرية وسأريك الكثير من الأشياء التي أنا موقن من محبتك إياها.. إلى اللقاء"

إستدعاني مدير السجن المكلِّفُ أحد مستشاريه بنسخ الرسائل التي يكتبها السجناء وإرسالها للشخص المعني عبر بريده الإلكتروني. كان يحمل الرسالة بيمناه وعليه علامات تعجب.

لما جلست قبالته شرع في سؤالي

- ما هذا؟

- ألم يتم إرسالها بعد؟ لا تقل لي أن الحق الوحيد تم هضمه في هذا المكان.

إستغرب من كلامي كثيرا، وكان بإمكاني ملاحظة ذلك من طريقة نظره إلي

- لقد تحققت من صاحب البريد الإلكتروني الذي كتبته و.. لا أعرف إن كنت على دراية بذلك غير أن هذا الشخص..

- بلى، أعرف

- حسنا.. يا إلهي، أنت شخص مجنون.

- كان عليكم الإرسال فحسب، هذا شيء يخصني

- إستمع جيدا إلي، إذا كان بك كتابة أو ما شابه، يمكنني مساعدتك، أعرف الشعور، لدي ابن أصيب بنفس الحالة وتحسن حين استشار طبيبا نفسيا.

- أراهن ألا نفع من كل هذا

- لا تستبق الأحداث، عل الأمور تتغير للأفضل.

- لن تتغير يا سيادة المأمور، هلا أسديت إلي خدمة وأرسلت ما كتبت لصاحب هذا البريد؟ فإن لم ترد ذلك فلا تفعل، ففي النهاية.. من يهتم.

- يبدوا أنك لا تريد الخروج من السجن.

- لن أجعل نفسي ألعق أحذية الحرس.

- من طلب منك ذلك أيها الجاهل؟ أحاول مساعدتك فحسب

- أنا على خير ما يرام، لست مريضا، ولا مكتئبا.. مثل ابنك المخنث.

- هل تعتقد أنك مسيطر على وضعك هنا؟ لا زلت فتى أخرق وبكاء لا يفهم من العالم شيئا، ما رأيك لو أرسلك للسجن العام، في أقسى الشمال، أتعلم مالذي سيحدث معك؟ حيث القتلة وتجار المخدرات والسفاحون، سيكون فتى يافع مثلك هدية لهم! يمكنك إدراك ما أعنيه هنا أليس كذلك؟ سيجعلونك جارية هناك، وستمضي بقية حياتك عاهرة من العيار الثقيل، أتفهم؟ وعندما يحدث ذلك ستدرك المعنى الحقيقي لكلمة مخنث.

أغاضني حديثه بشدة والمسدس قريب مني، يمكنني التقاطه حتى وإن كانت يداي مقيدتان وعندها سأفجر رأس هذا المتعجرف لكنني تمالكت نفسي

- لكل منا تجاربه في هذه الحياة ياحضرة المأمور ويبدوا أنك خضت تجربة قاسية بعض الشيء أتفهّم ما مررت به.. يمكنك إدراك ما أعنيه هنا أليس كذلك؟ أخبرني بصدق، هل دخلت السجن من قبل؟

ظهر الغضب جليا على وجهه واصطكت أسنانه ببعضها فقال

- صدقني أيها الفتى الأحمق، يمكنني جعلك تبيت ليلتك هذه هناك

- آه.. أنا أرى ذلك جيدا الآن وبوضوح أكبر، يبدوا أنك عارف أيضا بجغرافيا سجنك هذا الذي تتحدث عنه، أنا موقن الآن من كون ابنك هو العاهرة المصابة بأزمة نفسية جراء اغتصابها من طرف عصابة ما، لكن أن تمر عائلة بأكملها بنفس التجربة.. هذه مأساة.

هم أن يضربني لما تناول سوطه البوليسي المعلق على الحائط فنهضت بسرعة وخطفت المسدس ووجهته نحو صدره.. يداي ترتجفان ومكتبه حائل بيننا والباب مقفل..

يتحرك من اتجاه لآخروأتحرك بدوري عكسه حتى تبقى الطاولة حائلة بيننا فلا يصل إلي.

- ضع المسدس جانبا أيها الفاسد

- سنتحدث في الأمر حينما تضع سوطك

- أخبرك أيها الصغير أن هذا ليس فلما ولسوف ترى مالذي سيحدث لك.

- حتى ذلك الحين، الأجدر أن تفكر في الورطة التي أنت فيها الآن.

واصل تحركه يمنة ويسرة كأنه ذئب يتربص بفريسته حتى يوقع بها، لكن لن أجعله ذئبا بارعا، ربما أكون فريسة في نهاية المطاف بيد أنه سيدفع ثمنا غاليا لنيلها. أنا جاد في هذا ويمكنني ضغط الزناد في أية لحظة.

- مالذي ستفعله؟ ستقتلني؟

- الأمر عائد إليك، والكرة في ملعبك، يمكنك أن ترمي سوطك وتهدأ وحينها سأعيد التفكير في الأمر.

- وماذا بعد قتلي؟ كيف ستتصرف، لن يكون بإمكانك العبور من خلال الحراس خارجا والهروب.

- ستكون ميتا حينها حينها يا حضرة المأمور، لن يكون بإمكانك رؤية ما يحدث، ولن يهمك أمري.. ستتشرد عائلتك من بعدك وسيدخل ابنك المخنث السجن وسيصبح.. حسنا أنت الأدرى بما سيحدث له.

- صدقني، رهانك خاسر من البداية، ستكون قاتلا ولن ترحمك المحكمة حينها.

- أنا خاسر بطبعي، وليس لدي ما أخسره أكثر من هذا. لكن أنت.. ضغطة زناد واحدة و.. النهاية.

- إن ما تقوم به تهور

- أرى أن لهجتك تلين بعض الشيء.

- حسنا، ناولني السلاح وستكون الأمور بخير

- إرم سوطك أولا

رذخ للأمر ورمى به فوق الطاولة وقال

- سلمني المسدس الآن

- هل تعدني أنك لن تؤذيني بعد ذلك

- أعدك، هات المسدس

ومد يده.

ناولته السلاح فالتقطه بسرعة وأفرغ منه ثمان رصاصات دفعة واحدة وأفرغ التاسعة تاليا ثم التقط سوطه ونادى ثلاثة من الحراس فدخلوا بسرعة حاملين سياطهم وانهالوا علي ضربا.

ناديته

- لقد وعدتني ألا تؤذيني

قال صارخا مغتاظا منتقما منهالا علي بوابل من اللكمات

- سأستأصل منك جرأتك هذه يابن الفاجرة

وتوالت اللكمات والركلات وضربات السياط على كامل أنحاء جسدي حتى فقدت الوعي.

يختلف الأمر في السجن الإنفرادي، أعني أنه يميل إلى الأسوأ.. فكرت أن أمكث وحيدا بقية حياتي فلست خيرا من صاحبة المكتبة في شيء على أية حال ولا ضير أن أعتزل الناس بالجملة فبغض النظر عن رأي أي شخص بي إلا أنني سيء جدا ولن يروق لأي كان مصادقتي.. أتدرين يا هدير من الأسوأ مني؟ إنه صاحب فكرة السجن الإنفرادي.. لا يمكنني التصديق أنه بشري، مستحيل أن يكون إنسانا من أتى بشيء كهذا. وآمرُ السجن الذي وعدني ألا يؤذيني بعد أن أسلمه المسدس أخلف بوعده. عرفت أنه سيبرحني ضربا لكن لم أظن أنه سيرمي بي في السجن الإنفرادي. لقد استيقضت ووجدتُني في غرفة بيظاء شديدة البياض. وأنا أعي ما أقول يا هدير، إنه بياض كامل لدرجة أنه لم يسعني في البداية استيعاب موقعي منها. شعرت للحظة أنني ملتصق بالسطح ثم تبين لي بعد ذلك لبرهة أنني مرمي على الأرضية ولقد شعرت بألم في كل عضو من أعضائي فصرخت لذلك بشدة وحينها لاحظت ألا صدى لصوتي فارتعبت. بدأت أشك في كوني حيا أصلا فشعرت بالخوف، يا إلهي أنا لست شخصا صالحا حتى آتي لهذا المكان بهذه السرعة، لماذا فعلت بي هذا؟ قلتَ أنك رحيم بخلقك لكنك لم ترحمني. وترى أنني شديد الضعف ولم أُرد المجيء لهذا المكان أصلا، ألا يكفي أنْ ابتعدَت هدير عني حتى أهلَك أنا بدوري؟.. آسف يا إلهي! لا أقصد شيئا

مما قلت ولن أعترض على قضائك إلا أنني عبد جنى على نفسه حتى وصل لهذه المرحلة من بؤسه فأرجوك اغفر خطاياي ونقني من ذنوبي، آمين.

وقفت على قدماي بصعوبة وشرعت في تلمس الحائط الرطب دائري الشكل فلم أتحسس شيئا يدلني على وجود مخرج فازداد رعبي وخوفي وإن يكن فلست مستعدا لشيء كهذا، وأعتقد أن المأمور كان صادقا في قوله أنني لا زلت طفلا أخرق لا يعرف من العالم شيئا. عل الجحيم يكون على تلك الشاكلة فعلا. واللون الأبيض لا يعني دائما الصفاء والنقاء كما علمونا في المدرسة، هو يمثل الفراغ أيضا والإنفصال عن الذات واللاوعي. لا أعرف تعاريف هذه المفردات ولا أعرف أي شيء. التفكير قاتل، وليس كسابقيه في حالات الكآبة أو الوسواس القهري أو ما شابه. أعني.. عل الإنسان سادي بعض الأحيان فيقصد المكوث في جو من الكئابة والحزن بعض الوقت كنوع من الطقوس اللامفهومة عند بني البشر. ربما أستمتع بتعذيب نفسي حينما أضعها في مستنقع حزن. لكن الأمر يختلف هنا، لن يسعك التفكير في أي شيء. هي الحالة المعاكسة تماما. تريد التفكير في أي شيء ولكنك لن تستطيع المكوث على تلك الحالة سوى ثوان معدودة ثم تعود لتجد نفسك في تلك الغرفة البيظاء اسطوانية الشكل بعيدة السقف. العقل نعمة أنعمها الله على عبيده فبواسطته ومع مجهود كبير استطعت تمييز الأبعاد قليلا. يبعد السطح حوالي أربعة أمتار وقطر الغرفة حوالي ثلاثة تزيد أو تنقص. لكن هذا العقل يستسلم حينما يطلق مجهودا لإنقاذ صاحبه دون جدوى. يعتمد هذا العضو المعقد على التباين بين الألوان والأصوات والأشكال والأحجام حتى يمكنه تشكيل صورة كاملة تجعل الإنسان متوازنا لكنه الآن بوضع لا يحسد عليه، لا يسعه التقاط سوى شيئين اثنين لا غير، غرفة شديدة البياض إصطوانية الشكل وصوت هذيان صاحبه.

لا أدري أليل أنا فيه أم نهار. ومع مرور الوقت والسكون الذي حل بالمكان بدأت أفقد صوابي فشرعت في الصراخ، " أيها الحارس، أيها المأمور، عيب عليك تركي هنا، أخرجوني من هنا أيها المجرمون.. أيها الحراس، أيها اللقطاء، يا أبناء الكلب، تعالوا وأخرجوني من هذا المكان..". بالغت في الصراخ وصرت كالمجنون واضعا كفّايَ على رأسي دائرا حول نفسي حتى شعرت بالدوار والغثيان وسقطت أرضا ولا زلت أصيح وقد قاربت من فقدي لوعيي إلى أن فُتح باب من السقف وظهر حارس يدور وما حوله حول الفتحة لأقول له متلعثما

- أخرجني من هذا الجحيم

- كف عن الصياح أيها الأحمق فقد صُدِّعت أذناي جراء صراخك كالرضيع..

لم أستوعب بقية ما تفوه به

- أخرجني من هنا

- أخبرتك أن الأمر يعود للمأمور و..

- أخرجني من هنا يا ابن الساقطة..

- لا بد أنك جائع، سآتيك ببعض..

- أخرجني من هنا، أرجوك

لا أعرف بما رماني لكن شيئا سقط بجانبي ولا زلت أردد أن يخرجني من الغرفة حتى فقدت الوعي.

لم يكن غيابا عن الوعي بقدر ما كان نوما، نمت، وحلمت، رأيت الكثير من الأشياء الغير مفهومة، وكان عبد ربه من ضمنها، رأيت أمي أيضا، ولم أشعر انها حزينة لما أنا عليه، كأن طارئا قد حدث، لم يوليني أحد إهتماما كبيرا، جذبتُ أمي من بين الناس فقالت أن عليها الذهاب. لم أفهم مالذي تتحدث عنه لكنها بدت متعجلة وغير مهتمة بي لذلك تركتها تذهب. الكل يمشي في اتجاه واحد، جماعات وفرادى. ولما عزمت اللحاق بهم وجدت نفسي مقيدا فجأة. لم تكن أصفادا بل كنت مغموسا حتى صدري في برميل إسمنت قارب على الجفاف. أردت تخليص نفسي فلم أقدر واستمر الخليط في الجفاف حتى تصلّب تماما فانهرت أبكي بعد أن ناديت من أعرفهم من الناس ولم يلتفت إلي أحد. إستسلمت لما تيقنت أنني سأبقى كذلك للأبد، لا يمكن وصف الشعور. إنها حالة من ضمن ما نطلق عليه '' ما وراء الطبيعة''. شيء تراه ولا يمكنك السيطرة على أي جزء منه أو من نفسك أو إرادتك، عقلك الذي لا يستطيع استيعاب مفهوم الأبدية يريد الهروب بك نحو شيء أكثر واقعية لكنه لا يستطيع فعل ذلك بشكل صحيح فيدمج حينها ما تراه بصور وأصوات وقوانين من الواقع المخزنة في جزء من الذاكرة، وعندها تتجسد الفضاعة بكل معانيها. لا زلت على هيئتي ملتصقا بكتلة الإسمنت لا أقدر تحريك شيء سوى يداي على أني أصبحت رُخًّا في لعبة شطرنج، رخّ أسود.. الملك في خطر نظرا لتواجد الوزير الأبيض قبالته لا يفصلها سوي فيل أبيض وبحركة من هذا الأخير ستنتهي اللعبة. كان علي التحرك لأحول بين فيل العدو وملكي ولما تحرك الحصان الأبيض على يسار

حليفه الفيل وجب على الجندي الأسود التقدم خطوتين للأمام كي يضمن هلاك أحدهما وتهديد الوزير الذي لا يمكنه الحراك نظرا لكونه حامي ملكه لكن لم أنتبه إلى أن الرخ الأبيض قام بحركته القاضية لما تحرك إلى آخر مربع في أقصى الواد الأيمن لتنتهي اللعبة بفوز الأبيض. لما سقط الملك الأسود تلاشت الرقعة وتتابع تلاشي القطع السوداء واحدة تلو الأخرى لتتحول القطع البيظاء لدوامة رمادية تنبعث منها حرارة شديدة. لما بدأ العرق يتصبب من على جبيني جذبتني تلك الدوامة وأردت الهرب منها فلم أقدر وبدأت أصرخ حتى توقف الزمن لتظهر صورة هدير بين تلك الأشياء الغير مفهومة وهي تنادي، '' مراد.. إنهض أيها الأحمق، سيدي.. درجة حرارته عالية، مراد.. مراد..''. هزتني مرارا وهي تكرر إسمي وتناديني، '' أيها الطفل المدلل، ستوقعنا في مشكلة.. هيا انهض'' ثم ركلتني على بطني فآلمتني ولما أردت سؤالها عن سبب ما فعلت تلاشت صورتها هي الأخرى وتغير صوتها وتلاشى العالم من حولي حتى عاد أبيض، أو لنقل حتى عاد إلي وعيي واستيقظت من هذا الكابوس لأجد مجموعة من حرس السجن بما فيهم المأمور مجتمعين حولي.

لما تحركت قليلا ناولني أحدهم قارورة مياه حتى اتكأت جالسا على الحائط التقطته منه بصعوبة، وأعتقد أنه الشخص ذاته الذي فتح البوابة قبل قليل. أتاني آخر ببعض الرغيف. كانوا يتحدثون عني، المأمور وأحد الحراس علمت فيما بعد أنه مستشاره.

- مالذي سنفعله الآن يا سيدي؟

- سيبقى هنا مدة أطول، حتى يعرف شدة ما أقدم عليه من جرم

- لكن..

- كما أخبرتك، لن يخرج من هذا المكان حتى أقرر أنا خروجه.

لم يحركني شيء مما يقولانه ففي تلك الحالة كان خروجي من ذلك الكابوس نعمة عظيمة وإن كان السجن الإنفرادي الذي ينوون وضعي فيه لمدة أطول هو السبب.

- سيدي المأمور، مع كل احتراماتي لكم ولكن..

- ولكن ماذا؟ تكلم

- سينهار بالكامل إذا تركناه هنا مدة أطول. أرى أنه نال ما يستحقه. وكما ترى، درجة حرارته مرتفعة جدا وكان يهذي قبل قليل، فأرجوا منك أن تغير رأيك وتعيده لزنزانته. ثم إن حصول أي شيء لصحته العقلية أو

الجسدية سيؤدي بنا إلى عواقب لا تُحمد عقباها خاصة وأن المحكمة لم تقرر بعد مدة سجنه فأرجوا..

- حسنا.. أعد هذا الطفل إلى زنزانته، لكن إذا فعل أي شيء مخالف لقوانين السجن فستتحمل أنت جميع العواقب.

- نعم، بالتأكيد سيدي، شكرا لتفهمك.

بعد أن خرج المأمور وبعض الحراس من الغرفة الجحيمية بواسطة سلم ولم يبقى سوى مستشاره وحارسين آخرين. إلتفت هذا الأخير إلي وقال

- إنهض، ستذهب إلى زنزانتك الآن

أشار إلى الحارسين فوضعوا الأصفاد في يدي وألقيت بذلك ما بيدي من رغيف واقتادوني لزنزانتي بعد أن صعدت السلم بصعوبة نظرا للأضرار التي لحقت بي جراء ضرب هؤلاء الهمج إياي من قبل.

مضت أربع سنوات وبضعة أشهر فتم إطلاق سراحي وقد جاوزت الثالثة والعشرين من عمري وإن أكن خريج سجون فذلك خير من بقائي داخل الزنزانة، بعد ذلك الوقت الطويل داخل هذه الحفرة آن الأوان لأُصلح ما أفسدته. ولا بأس، سأعيد بناء صرح حياتي الذي هدمته بنفسي.. بل سأجعله أفضل مما كان عليه سابقا وعندها سألحق بالركب وأعود شخصا صالحا. لم أجد أحدا ينتظرني، لا أمي ولا هناء ولا حتى محمد.. حسنا، لا مشكلة. ثمة ما يشغلهم، هذا مؤكد.. تمشيت على الرصيف، وتأملت الأرض، ونظرت إلى السماء المغيمة جزئيا. وقد كان فصل الشتاء على الأبواب.. لماذا لم أجد أمام السجن أيا ممن أعرفهم ينتظر خروجي؟ لا لا.. هذا لا يهم الآن.. آه لو لم تسافر تلك الغبية لاتصلت بها وطلبت منها أن تنتظرني. بغض النظر عمن ستنتظره لكنني واثق من أنها كانت لتأتي. تلك الهدير طيبة القلب ونقية السريرة ولو كان ممكنا أن تأتيني لما دخلت السجن من البداية، بل لما تركت الدراسة أصلا. لكن حدث ما حدث ولن أعيد الزمن للوراء لأغير قدري. لدي بعض المال في بطاقة الإئتمان خاصتي والتي أعادوها إلي بعد انتهاء فترة سجني فأوقفت سيارة أجرة ومضيت إلى حيث كنت أقطن قبل ما يقارب الخمس سنوات. كان الغبار يملأ كل بقعة فيها أو ركن وقال لي المسؤول أن لا أحد دخلها مذ تركتها أنا ولا زالت على حالها للآن.

كتبي القديمة أصبحت مغبرة كسائر أي شيء في الشقة وتلف بعضها ممن أصابته أشعة الشمس المارة من النافذة. المكان حزين وكئيب كأنه اشتاق لأصحابه حتى يئس من عودتهم إليه فسكن ذلك السكون العجيب.

ها قد عدت أخيرا إليك يا شقتي العزيزة ولن أغيب عنك بعد اليوم أبدا، أنا أعدك بهذا.

'' مرحبا محمد، هذا أنا، مراد. لقد خرجت من السجن.. أطلقوا صراحي، وقد عدت إلى الشقة.. لم أرى أحدا ممن أعرفهم.. هلا أتيت؟ سأنتظر''.

محمد.. أعتقد أنه لم يتلق الرسالة.. هو الشخص الوحيد الذي أكتب على الورق إليه وهو الذي عاهدته أن أكتب له عشر رسائل متتالية أحدثه فيها عن أي شيء.. لقد وعدته بذلك أيام المدرسة وحقيقة، نسيت سبب ذلك. لم يرد على مرسولي إليه. لست موقنا من كونه يقرأ رسائلي لكنك يا عزيزتي تفعلين ذلك، صحيح؟ يختلف الأمر معك لذلك تأتيك كلماتي عبر البريد الإلكتروني.. أتذكرك يوم زيارتك.. لقد دخلت إلى الشقة دون حتى استئذاني.. الشمس لا تستأذن حين ترسل أشعتها من خلال النوافذ والأبواب ولإن اقتربت بشدة فستحرق كل شيء بيد أنك أقرب إلي منها ولكنك لم تحرقيني.. فراقك هو الذي أحرقني يا غبية وهو الذي هدمني وأوردني موردي هذا. هدير، صديقيني تمنيت لو لم تزوريني يومها لأن تذكر تلك الساعة للحظتي هذه يزيد من حنيني إليك.

بعد قرابة الشهر من ذهابي وإياها إلى مدينة الألعاب أصابتني حمى قوية أقعدتني لأيام داخل تلك الشقة.. وهاتفتني حين لم تلتقي بي أياما فأخبرتها بمرضي.. ثم بعد ساعة من الزمن أفزعتني حين دفعَت الباب الغير محكم إغلاقه..

قالت مباشرة لما رأتني جالسا على كرسي قرب النافذة

- و.. ها أنت ذا

قلت مندهشا

- هدير! مالذي أتى بك إلى هنا؟

لم تأبه لسؤالي بل وضَعَت كيسا أسود بلاستيكيا كانت تحمله على الطاولة وأنت ناحيتي مرددة

- عليك أن تحذر من موجات البرد هذه.

- شكرا لزيارتك. أنا أتحسن.

جلسَت على كرسي و.. يقول العارفون أن النظر إلى الزهور يشفي المريض وأعتقد أنهم على حق. أُخبِرُهم أنا أيضا أن التحديق بهذه الزهرة يشفي كل مرض أو على الأقل ينسيه. جلسَت على الكرسي قبالتي. لم أكن قبل ذلك قادرا على التحديق في وجهها لوقت طويل غير أنتي في تلك اللحظات لم أبالي بأي شيء أو بحديثها.. كانت هدير تتكلم عن التغير المناخي أو ما شابه لكنني لم أكن أنصت.. كنت أراك يا هديرتي فكيف يمكنني الإنصات إليك؟ أمر صعب أن أتحمل الإثنين معا. صديقيني، الكون بجماله وروعته لا يضاهيك.

قالت

- لديك نافذة كبيرة هنا!

إتجهت ناحيتها وجلست على حائطها ممسكة بالكرسي الذي أجلس عليه ناظرة للأسفل لتضيف

- المكان شاهق، يسعني رؤية مقهى المعهد من هنا.

- كوني حذرة. سقطة من هذا المكان ويفقد صاحبها حياته.

إتكأت على جدار النافذة وحدقت بالسماء فخُيّل إلي أنها ترى عالما آخر بينما قالت

- إلى متى؟..

- إلى متى ماذا؟

- إلى أي حد يمكننا الصبر؟

- صبر على ماذا يا هدير؟ تكلمي بلغة مفهومة رجاءا.

- أمن فرق بين الحياة والموت؟

- فلسفتك صعبة الفهم؟

- أي فلسفة يا رجل؟ أنا جادة في سؤالي

- الأولى نقيضة الثانية.

- فما أحلاهما؟

- أُولاهما

- أقانون عام هذا أم رأيك؟

- بل قانون عام.. لن يفضل عاقل الموت على الحياة.

- أما أنا فأفعل.

- لست عاقلة إذن.

- علي الوحيدة الأكثر عقلانية في هذا العالم.

- ماذا يسعني أن أقول يا ترى؟

- أسطورة..

- عفوا!..

- قلت لك، أخبرني عن أسطورة.

- هدير!!

- أخبرني.

- حسنا، ثمة أُمٌ مجنونة فيما مضى، حضر الموتُ وحيدتها التي غاب عنها أبوها، فنادتها لفرط ذهول ألمّ بها أن يا بنيتي انتظري حتى يعود أبوك إلى الديار فلم تجب الفتاة لأنها كانت صماء فهلكت. النهاية..

- فالصمم إذن هو من جعل البنت تموت ولولا هذا الأخير لاستطاعت العيش لمدة أطول..

- كيف عرفت رقم شقتي يا هدير.

أطرقت في التفكير قليلا لتقول مستنتجة

- إنها سيمفونية رائعة.

- ماذا؟!!

- أسطورتك.. أسطورتك سيمفونية جنائزية.

- عماذا تتحدثين؟

- أعتقد أن الموت والحياة مكملا بعضها في نهاية المطاف.

- هدير، لا أدري إن أصابك جنون أو اكتئاب أو ما شابه لكن أخبرك أن فلسفتك هذه خاطئة وقاتلة ومعظم ما تتفوهين به هراء لن يفهمه أحد.

- أما عن شقتك فقد سألت ذلك البدين في الأسفل وأخبرني..

أنت غبية يا هدير، وحمقاء، ماكان عليك ترك الأمور على ماهي عليه من فوضى، كان ينبغي عليك انتظاري بموقف السيارات، لكنك لم تفعلي، لم تنتظريني، بقيت من ذلك الوقت مهموما حزينا كئيبا ومنحوسا. لقد تركتيني وذهبت بهكذا بساطة ولم تخبريني بأي شيء، أتدرين أنني أراقب من يومنا ذاك المكان المنحوس، إنني أنتظر، صدقيني يا هدير، لقد انتظرتك سنوات وأنا جالس بآخر طاولة بمقهى المعهد المطلة شرفته على موقف السيارات، أعدها سيارة سيارة عل سياراتك مركونة بينها، وأعد الأيام يوما بعد آخر علك تطلين من بين شجرتي الأرز، أراقب المكان بشدة وشغف، صدقيني لقد فعلت ذلك كثيرا، بقيت وأطلت بقائي بمكان أصبح منحوسا مكروها بعد ذهابك وقد كان محبوبا إلي وأنت التي آراك كل يوم وأرعاك بعيني. أرتقب قدومك من إحدى باحات المعهد وكل يوم طوال سنين منحوسة بائس مثلي يعيد ما فعله قبل ذلك بيوم وموقن أنه سيعيد الكرة اليوم التالي.. ثم من سطح العمارة يا هدير أراقب المكان وأنا أعد الساعات والدقائق كما أعد ليالي ليلة بعد أخرى حتى تسكن المدينة وتنطفأ معظم أضوائها وأدلف إلى شقتي وقد تكفكف دمعي كما يفعل ذلك من زمن طويل كل ليلة.

لذكراك أبكي فيلومني محمد ويعاتبني فلا أزيد إلا بكاءا ونحيبا. كانت دمعة قد انسلت من عيني حين أتى على ذكرك إنتبه لها معظم من في المقهى.

- ألا تكف عن هذا

- ألا تكف أنت عن ذكرها عندي؟

- أرجوك يامراد، لن تعيد حالتك الزمن للوراء أبدا، لقد مضت تلك الفتاة في طريقها ولن تعود لهذا المكان أبدا

- هذا ما يحزنني

- ينبغي عليك القبول بما أنت عليه الآن

- نعم، نعم بالتأكيد. وهل سيغير ذلك من الأمر شيئا؟ أنت تعرف، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. لكنني أحبها كثيرا يا صديقي.

- وما عساك تفعل إذن؟

- أتعلم؟ إن ما فعلته لأجلي ضرب من العبث، لقد تيقنت ذلك مؤخرا. نسختها شبيهة بها كل الشبه وقد خيل إلي يوما من أيام عيشي معها أنني أحببتها لكن ذلك كان مجرد شعور زائف. لما لاحظت أن نظرات حبيبتي الباهتة ليست موجودة في نسختها علمت أن الفرق بينهما شاسع، أن ما فعلته لأجلي جنون. هو جنون جيد، أتعلم؟ يا إلهي، إن شعرها يا محمد كشعرها ووجهها كوجهها وصوتها كصوتها وتناسب الألوان في هذه كتناسبه في الأخرى واستدارة العينين متماثلان وبريقها واحد لكن سكونها عند هدير مغيب عند نسختها والروح في الأولى لاتسكن في الثانية. آسف، أنا آسف حقا، لم أستطع. لقد حاولت أن أحبها كما أحبها بيد أنني لم أقدر. كيف لك أن تحب آلة غبية كتلك؟ كومة خردة، إشارات كهربائية، دارات مطبوعة، مجموعة أزرار.

- كانت فكرتك منذ البداية، أنسيت؟

- لا لم أنس. مع ذلك، لقد أبدعت في صنعها على تلك الهيئة. كانت تحفة بحق. إنك تمتلك يدان سحريتان تبدع بهما كيفما تشاء فيا ليت أن الله نفخ فيهما من قدرته حتى تستطيع إحياء الموتى من البشر.

- حسنا، خذ هذا المنديل، الجميع ينظرون إلينا، أرجوك كف عن هذا.

ناولني منديلا

- وماذا يضرك ما أنا فيه يا محمد؟

- أرجوك، أنت تضيع حياتك من أجل وهم، تلك البنت وهم تصنعه داخلك، فتركت دراستك وعملك وجفيت أمك وأختك حتى كففت عن زيارتهما من زمن بعيد جدا.. إلتقيت بهما قبل أيام، إنهما بانتظارك، بالرغم مما أنت عليه، لا تزالان بانتظارك، أتدري من ينتظران؟ عالم آثار فرعونية راق يفتخران به بعد سنوات من الفقر والحرمان؟ مدرس تاريخ؟ مقارن أديان؟ فيلسوف؟ ينتظران فتى أضاع عمره بسبب وهم. إنهما تدركان ذلك جيدا، ولم يسعفهما الوقت ولا المال ولا المسافة ولا أعمالهما لزيارتك. بالرغم من كل ذلك لا تزالان تأملان خيرا فيك. أرجوك يا مراد، لا تخيب ظن أهلك بك أكثر مما فعلت، عليك أن تفهم ما يمران به أيضا وعليك أن تقدر ذلك جيدا، لست مراهقا بل أفنيت شبابك، إنك تؤذيهما، وتعذبهما أكثر مما تتصور.

- أعذبهما؟ أأنت من يقول هذا يا محمد وأنت صديقي الوحيد المتبقي؟ كيف يسعك أن تلفظ بمثل هذا القول وأنت لا تعرف عما ألم بي شيئا، أأنا من يعذبهما حقا؟ أهذا ما توصل إليه عقلك الخبير بعد سنوات من ملاحضاتك على مامر بي من ألم وبؤس؟ أنا من دمر حياته بنفسه يا محمد وتقول أني

أعذبها؟ أنا من خسر عمله يا محمد وتعتقد أنني أعذبها؟ أنا من يتمنى الموت كل يوم دون أن يأتيه شيء منه حتى لو حاول ذلك، لقد حاولت الإنتحار سنة فراقها والتي تليها والتي تليها وكل يوم وكل ساعة أفكر في أن أقتل نفسي وأرتاح من هذا العالم وأريحه ومن به مني، أردت قبل أيام القفز من على سطح العمارة فمنعني أحدهم اعتقد أنه ينقذني وهو الذي أعادني إلى الجحيم الذي أتيته أول مرة، وقد بكيت باهتياج، وبالغت في الصراخ والنحيب كطفل صغير وكنت مثيرا للشفقة لأبعد الحدود ولم أشأ أو أرد أو أستطع النظر في وجه من حسب نفسه منقذي ولا في وجوه جمع من الناس قد تجمعوا حولي فوق سطح العمارة هامسين مشفقين على حالي ولا النظر في وجه طبيب نفسي تطوع لفحص حالتي دون جدوى. أنا شخص بائس ويائس وأكره ما أكره نفسي وأحب ما أحب هدير ولا علاقة لها بما حدث معي.. هل تذكرها يا محمد؟ إنها رائعة، وأنا أحبها وكنا نعيش عيشا هنيئا رائعا ثم.. ثم تركتني وانطلقت لحيث لا يسعني اللحاق بها مطلقا، لقد تركتني وحيدا يا محمد! مكثت من بعدها كصخرة ملقاة على جانب طريق بائس لا يأبه أحد بها بعد أن صيرها الجمود غير آبهة بنفسها.. صيرني غيابها في هذا الكون كجيفة خنزير هي أهون شيء على صاحبها. إنها حمقاء، وغبية وجافية ولا تفهم الأمر جيدا، إنها عاهرة وعنيدة وصلبة الرأس، ولولا ذلك.. إنتظر، ليست عاهرة، هدير لم تكن ولن تكون عاهرة أبدا، إنها محبوبتي، ولا يمكنني تسميتها بمثل هذا، أنا العاهر الوحيد في هذا الكون. هل تعلم يا محمد يا صديقي الوحيد المتبقي أن عاهرا مثلي يخاف أن يكتشفه أحدهم وهو يبلل وسادته بدموعه كل ليلة صانعا داخل عقله الخرب سيناريوهات موته، يفكر ماهي أسرع طريقة للإنتحار؟ نعم، تلك هي حياتي الآن، بائس، يائس، منحوس، مكروه، منبوذ، أحمق، جبان، بكاء، هين.. أكره حياتي التي عشتها في أبأس السنوات داخل أسوإ شقة بالطابق الخامس من العمارة المنكوبة بهذه المدينة الكئيبة في هذا الكون العاهر. ثم ماذا؟ تأتي أنت لتخبرني أنني أعذبها! هكذا بكل بساطة تقول مثل هذا القول، كأن شيئا لم يكن. كأنك لا تعرف أن متمني الموت لا يضر أحدا، كأنك تجهل أن المعذبين أمثالي لا يعذبون أحدا غير أنفسهم البائسة.

- يا إلهي! لقد أخذت منك تلك البنت مأخذا عظيما

- إسمها هدير إن نسيته

- لقد أصبحت مجنونا يا رجل

- مالذي يضرك أنت من جنوني

- ألا تمسك عن هذا الكلام؟

تنهدت تنهيدة من فقد صبره

- ألا تدرك أنه لا معنى مما تفعله يا محمد؟ نعم أنا مجنون وفاشل وأنت عاقل وناجح، هل تذكر؟ منذ سنوات طوال، دائما ما كنت الشخص الرائع اللامع وأنا التمثال الماكث جانبك من أيامنا الأولى بالمدرسة الريفية. لا أدري مالذي يجمعنا للآن؟ لعلها شفقتك علي. لا تفعل! أكره أن أكون مثيرا للشفقة، وأحقد على من يشفق علي.. لقد ساعدتني في كثير من الأحيان وأنا ممتن لذلك ولا أنكر جميلك، أنت شخص رائع بكل المقاييس وصاحب شركة تقنيات ضخمة وأنا الشاعري الفاشل الأحمق، فمالذي يجعلنا مجتمعين هنا. لا أفهم مالذي أتى بك إلي أصلا.. حسنا، لتخبرني أن عائلتي حزينة لأجلي. جيد جدا، لقد سمعتك. يبدوا أن مهمتك انتهت.

لم ينطق بكلمة في البداية، كأنه سرح بخياله لبعض من الوقت، كان يحدق بساعته ويعبث ببضع أوراق إدارية. تنهد ثم وقف من على كرسيه ببطء قائلا:

- لقد حان الوقت، تركت لك بعضا من أطعمة عند حارس العمارة التي تقطن بها، أرسلتها والدتك لأجلك. علي الذهاب الآن.

- بالتأكيد يمكنك الذهاب في أي وقت تشاء، ما كان عليك المجيء لأجلي أصلا يا محمد. لقد أتعبت نفسك من أجل لا شيء، يمكنك المضي قدما حيث تريد، وقد أصبح لديك أبناء الآن فاعتني بهم وانسني كما نسيني الجميع، لا آبه بك ولا باعتقادك لأنه لن يزيدني شيئا ولن ينقصني آخر. أفهمت؟ لذلك انسني كما نسيني عامر وكما نسيتني إيملي، كما نسيتني تلك السنوات الجميلة. تخل عني كما فعلت هدير، يمكنك ذلك، وإن شئت فسأساعدك في الأمر. كن كالجمع العاقل من الناس، كمن نفد صبره. أمرك لا يعنيني فلا يعنيك أمري. يا إلهي، الآن أدركت أن الجميع تخلوا عني حقا، أبناء دنياهم تركوني واستبدلوني بأموال وأولاد وأعمال ومشاغل. كلهم تغيروا، وجموا وجهتهم شطر ما كانوا يتمنون ويأملون وتركوني وحيدا ضائعا دون أن يأخذوني معهم. إن قلوبهم قاسية ولما أدركوا أن أرواحنا لا تلتقي ذهبوا. تبا للجميع، وتبا لك يا محمد وتبا لهدير وتبا لهذا العالم، أنا أكرهكم أيضا مثلما تكرهوني وأمقت عالمكم. فإن لم يكن لي مكان بينكم فلا مكان لكم عندي والتذهبوا وعالمكم إلى الجحيم. لقد اعتدت البقاء وحيدا فلا بأس، ولا مشكلة يا صديقي.. يا محمد..

رفعت رأسي فاكتشفت أنني أتحدث لوحدي. لقد رحل إذن.

لا أتذكر من التفاصيل في تلك المرحلة من حياتي البائسة إلا القليل، وكان مما كان أن أهلكتها ووصلت بها لبعد من الهوان سحيق بعد أن هدّمت على نفسي سقف آمالها وأحلامها. وأملي كما أخبرتك كان بناء متحف خاص بي بادئ الأمر وحلمي كان أنت، مُنًى لا يدرك وغاية هي أبعد شيء عن صاحبها. ولقد أخذ مني البين من بعد فراقك مأخذه حتى طلبت من محمد أن يصنع نسخة تشبهك فكانت كومة خردة في شقتي ماكثة تذكرني بك دونما لقياك ورؤياك فإذا تكلمَت كانت أنت وإذا ابتسمَت كانت أنت فأضحكَتني وللحظة أسعدَتني ولجنون أصابني وأسف على حالي أبكاني هواني فحملت عصاة ورحت أضربها كتلةً معدنية لا تشعر وحق لها ألا تشعر وحُق لي أن أكون أتعس امرئ فوق أرض الله. ثم حتى صيرتها خردة تلاشى الشبه بينكما يا هدير. أرأيت إلى أي بعد من الجنون أوصلني فراقك الغريب عني؟ أفهمت الآن أيتها الغبية معنى كلمة أحبك عندي؟ ألا ليتك يا من تجهلين ما مر بي لو تعرفين! لقد مكثتُ في المدينة بعد خروجي من السجن أعواما عديدة وتنقلت من عمل لآخر بين مصانع زهيدة الأجر وأعمال بناء وتنظيف شوارع وما إلى ذلك من أشغال الأشقياء حتى أبقى حيا، أفهمت؟ عملت حتى أنال حصتي مما كتب الله لي من طعام. وكل ذلك من أجل ماذا؟ إبقاء نفسي التي أكرهها حية.. لقد كادت إحدى المرات أن تهلك من الجوع لقلة المال عندي لولا أن من الله عليها بمن يطعمها بعضا من بيض مسلوق. لن أخبرك بالمزيد.. أبكي على حالي كلما تذكرت تلك الحادثة.

يا عاهرة، أيتها الساقطة البلهاء، لكم قلت لك ألا تغادري، أين أنت في ذلك الوقت حين انهار جسدي لشدة الجوع؟ لا تفهمي الأمر بطريقة خاطئة. لا أترجاك يا هدير أن تُعيليني إنما أذكرك أنك كنت السبب الأول لمأساتي التي أحدثك عنها. يا إلهي! هذا العالم قاس جدا، والعيش في المدينة طامة لأمثالي وعقاب بدون حساب. هل تصدقين يا هدير أن والدتي وهناء لم تزورانني بعد أن خرجت من السجن؟ فقط، أخبرني محمد أن هناء سألت لو عدت إلى القرية، فذلك خير من بقاء في المدينة لا طائل منه. لكن يا شقيقتي الغبية، لأجل أي شيء أعود لهناك بعد سنوات من الضياع؟ هل تريدين مني أن أكون جارا لأروى؟ هذا لن يحدث أبدا. لا أريد أن تراني تلك الكلبة على حالتي هذه. ولن أعتذر من نعتي إياها بالكلبة لأنها بالفعل كذلك. صحيح، أوهمتُ نفسي من قبل بمشاعر كاذبة تجاهها لكن ذلك يا هناء وأصدُقك القول، كان محض سخافات. ماذا ستقول أروى عني يا ترى لو رأتني فاشلا عائدا بعد غياب طويل أجر أذيال الخيبة منكسا رأسي منكسا رأسك وأمي بين الناس جالبا لعائلتي العار؟ ستضحك علي وتشمت بي أنا الذي أحبّتني فخذلتها وتروي قصتي للجميع وتفضحني. ألهذا أعود؟ لن

أذهب لتلك القرية أبدا يا أختي. لن تطأ قدماي ذلك المكان مرة أخرى. كان من المفترض يا هناء لو تزوجتُ وهدير فتحضري أنت وأمي حفل زفافنا ثم لتمت تلك الأروى بغيضها. لكن ذلك لم يحدث للأسف. أنت وأمي أغلى شخصين عرفتُهما في حياتي. لا تستطيعان فعل شيء عدا إرسال سلال البرتقال إلي عبر محمد. تبا للبرتقال يا هناء، لا أريد منكما طعاما بل حنانا أريد، تفهما، أنسا.. هل تظنين أن لو كُنتِ بجانبي أن أخطئ كل تلك الأخطاء؟ بالتأكيد لن أفعل. على أنه في النهاية لكل منا ما اكتسب من حظ في دنياه. فها أنذا، وها أنت لا أدري عنك وأمك شيئا.. وما بي تالله شاغلني عن كل بشر في هذا العالم. أنا لا أفعل شيئا في حياتي سوى تذكر هدير وربط كل شيء بها وحسرتي على فقدها بتلك الطريقة المجنونة.. لذلك، تفكيري هو الشيء الذي سينهيني في الختام. إنها تفاصيل قاتلة، سيناريوا تتم إعادة بثه في مخيلتي المرة تلو الأخرى.. لا تعجبني تلك الأحداث !ولا أريد تذكرها. أحداث مسمومة تبقى مخزنة في جزء من المخ تنهش حياة الشخص شيئا فشيئا إلى أن يموت..

لقد انقطع اتصالي بمحمد بعد لقائنا الأخير ذاك، وأنِفَت نفسي بفكرة الإعتذار منه لأنني أخطأت في حقه يوم قلت له ذلك الكلام الجارح. هو في النهاية صار صاحب ثروة طائلة لا ينقصه شيء يجعله ينصحني بتلك الطريقة إلا لأنه صاحبي ورفيقي وصديق طفولتي. وبعد شهور من فراقنا تحصلت على عنوان بريده الإلكتروني فكتبت إليه اعتذاري لألا يضل في نفسه شيء مما يبعده أكثر عني أيام حسبته الشخص الأخير الذي يسعني إلقاء همومي على مسامعه.

'' مرحبا، هذا أنا.. مراد. أيًّا ومهما تكن لا تزال صديقي يا محمد. وأنت أعرف الناس بي وأنا أعلمهم بصدقك ومودتك وطيب قلبك وحسن معاشرتك. خِلتُ للحظة من نوبات كتابتي ألا ألقاك ثانية. ثم حين عاد لذهني صفاؤه ولعقلي بعد جنون لساعة رجاحته أخافني ذلك كثيرا فرأيت أن من شيم الرجال اعتذارهم لمن أخطأوا في حقهم. ولقد قلت لك كلاما لا يليق بك ولا بأمثالك يا صديقي وأنا آسف لذلك، فأنت مهما كان ظنك بي غيرَ أنك مُتَّكئي الذي إن خارت قواي لجأت إليه وسامعي الذي إن ألمت بيَ الخطوبُ شكوت إليه ما أنا عليه وصديقي الذي لن أُبدل به شيئا من الدنيا.. كيف لا ونحن اللذان ذهبا معا للمدرسة أول يوم لنا فيها، طفلان ذوي خمس سنين لا نعقل من دنيانا قيد أُنمُلة ولا نهتدي إلى أي شيء منها سبيلا؟ وسرنا بين طيات الأيام معا مذ ذلك الحين صديقان وفيان إن سقطت على أكتاف أوّلِنا مأساة من مآسي الدهر أسرع آخرُنا رافعها عنه دونما تفكير مسبق، أكلنا معا ومعا شربنا وضحكنا سوية وكلانا لما يُبكي

أحدنا بكينا ومضت الأيام ومضينا وعُلّمنا ما لم نكن نعلم وكان فضل الله علينا لهذا ولجعلِنا صديقين عظيما.

وماهي إلا سنون سريع مرورها حتى انتقلنا إلى المدينة معا ليأخُذ كل منا نصيبه من العلم فجعلتُ التاريخ ودراسته مطية ليتحقق ما أصبوا إليه واخترتَ أنت لتفوُّقكَ علوم التكنولوجيا حتى تصير لحال أنت ذا عليه الآنَ. ولقد عَلمتَ ما مر بي من أحداث فيما يتعلق بهدير تلك. وحين أدركتُ أنني وإياها لن نلتقي مجددا صببتُ كل غضبي على مدير المعهد لأُطرد بعد ذلك وتغيرَت حياتي تماما لاتجاه لم أتوقعه بعد أن دخلتُ السجن وخرجتُ منه. أتراني بعد كل هذا سعيدا بما أنا عليه؟ لذلك، حتى لا يتواصل غضبك علي، إعلم أنني شخص كاد أن يُرفَع عنه قلم السماء لأقول ما قلتُه فسامحني فإنني أعتذر. وما لمثلي سوى أن يعتذر منك عسى أن يرق قلبك فتكون من العافين.

أنتظِر ردك فلا تبطئ يا صديقي أرجوك وإلى ذلك الحين، أبلغك سلامي عسى أن نلتقي على خير. إلى اللقاء".

أنا ياهدير كما انتظرتك انتظرت محمد ومثلك لم يرد على رسالة اعتذاري.. دعينا من ذلك الشخص الأحمق الآن.. كيف حالك في هذه اللحظة؟.. لاتشتغلي بأقوالي يا حبيبتي كثيرا فنفسي أهلكتني واشتياقي أذاقني طعم الذهول. كلامي في معظم الأحيان غير مفهوم وأنا أعي ذلك وبدوري لا أفهمه ولا داعي لتقييم كلماتي لأنها بلحظتك هذه لا معنى لها ولا غاية. أنت الوحيدة بين بني البشر من يفهم مقصدي. لذلك أكتب إليك الآن ولسخرية القدر أصبحتُ كمن فقد عقله متيقنا من قراءتك لهذا الكتاب. آه.. يا للأيام سبحان من أمضاها كيف مرت! أعلي كما عليك كانت يا ترى؟ لا أظن ذلك فسعيدة مثلك يستحيل أن يكتب الله عليها الشقاء فترى ما رأيتُه أنا وتسمع ما سمعت وتحمل ما حملتُ. إنما تلك سنة الخالق في كونه لن تَجِدي لها أي تبديل من أول لحظة في هذه الدنيا لآخر لحظة فيها.. أتدرين لِمَ أحادثك دونما توقف هكذا؟ أولا لأنك هدير وثانيا لأنه لا يوجد شخص آخر يسعني محادثته. حتى محمد لم يكن يستحق ذلك الإعتذار الطويل مني فمن هو على أية حال. ألم يقل السابقون أن المعتذر كمن لا ذنب له؟ أقسم أنني لا أحب ذكره أبدا لكن أراني مجبورا على ذلك، حتى تعلمي أن لا أحد في هذا الكون سواك يستحق الندم لأجله، حتى تدركي أن الناس يتغيرون ولا يمكثون على نفس الطباع مع مرور الوقت.

إنتظرت رسالته طويلا دون أن يرد علي فتبادر في ذهني أن ربما لم يطلع عليها أو عله أضاع بريده الإلكتروني ذاك، ويوم علمت أن لديه بريدا إلكترونيا آخر كتبت له مرة أخرى.

" أرى يا محمد أن رسالتي لم تصلك فتطلع عليها أو ربما غضضت الطرف عنها لسبب لا أعرفه وما عهدتُك من قبل هكذا، فأحسَبُ أن أولى الإحتمالين أنصفها وأرجحها وأبقاها لظني الجيد بك لذلك، أكتب إليك مرة أخرى. أعتذر إن آذيتك من قبل بكلماتي فاعذرني أرجوك. أريد فحسب أن نعود صديقين كما كنا سابقا وكما ينبغي علينا أن نكون. هذا كل شيء..

أي شيء أفعله لنفسي ؟ لقد أصبحتُ كبيرا بالفعل يا رجل. لدرجة أن صارت أيام شبابي ضبابية بعض الشيء. أعتقد أن مرضا لم يجدوا له دواء بعدُ أصابني. أنا عاطل الآن عن العمل وهل تصدق أنني كدت أموت جوعا؟ كان بوسعي بيع ذلك الروبوت الذي صنعتَه وأهديتَنيه لأحد المتاجر لكنني حطمته ورميته خارجا لا أدري ما فُعِل به. المشكلة الأولى في عصرنا الحالي هي الروبوتات والآلات المتطورة فلولاها لتوفرت الأعمال في كل مكان فإن كان ولا بد فاليخلق صانعوها أعمالا جديدة إذن. الفقراء والمعوزون في هذا العالم كثيرون لكن أرباب المؤسسات والشركات الكبرى أبَوا إلا الجشع وحُبّ المال والدنيا. أظن نفسي فقيرا يا صديقي وكما تعلم، هذا النوع من الناس بؤساء. وهم أحوج الناس لأصدقائهم وأقاربهم. أما أقاربي فقد قطعتُهم منذ وقت طويل ولم يردني أي اتصال منهم. علّهم اعتقدوا أنني مت وانتهى أمري. فيا ليتني مت حقا يا محمد فقد نفد صبري من هذه الدنيا.

إنها الأخيرة. وصدقني إنها الأخيرة يا صديقي. هل تعلم أن هاته الرسالة التي بين يديك هي ملاذي الوحيد لأخبر بشرا عن نفسي. إنها المنفس الوحيد يا محمد. لا أقول أن البقية لا يفهمونني وفي الحقيقة لا أدري أيفهمونني أم لا حيث أنني لم أتحدث مع أحد عن نفسي بصدق غيرك وهدير. أحيانا أشك في كوني شخصا طبيعيا وهل تعلم لماذا؟ إنه جدار يا محمد! جدار أراه رانًا على قلبي عزلني عن الآخرين. هل تعلم أن إجاباتي أصبحت مقتضبة في معظم الأحيان. الحياة تغيرنا يا صديقي ولكنها لا تغير أصولنا وطبيعتنا الداخلية التي تعتبر لبنا.. أتدري أنني أصبحت أكره نفسي أكثر من أي وقت مضى. وأكرهها لكوني لم أعد أعرفها، ولأنها تعذبني ليلا نهارا. لذلك يحتاج البشر لمن يساندهم في حياتهم ويستمع لهم. طبيعة البشر أنهم يريدون الإستماع لهم والإهتمام لأمرهم.

درس معي عامر من قبل لكنه رحل. كنا نجتمع فأحادثه عن أشياء طبيعية. ولكن بعد مغادرته عن هنا وإلى الأبد لم أعد أحادث أحدا تقريبا، اللهم إلقاء سلام مني أنا الذي اشتقت في حياتي للسلام. أشعر أنني لا أنتمي إلى حيث ينبغي علي الإنتماء. ماذا لو كنت أنت معي! كانت الأمور ستتغير للأفضل. على الأقل يا محمد سأخبرك أنني سعيد عندما أشعر بالفرح. وأقول لك إنني حزين عندما أحزن. لا يهم كيف يكون ردك ولكن المهم أنني شاركت أحدهم بما أشعر به. لو كنت معي لأخبرتك أنني حلمت بهدير مرارا وتكرارا وأنني كلما أزداد حبا تزداد هي صمتا أو لنقل جفاءا أو لنقل برودة أو أيا كان.. أنا لا أشتاق إليها بقدر ما أشتاق لأيامي الأولى بمعرفتها. الأمر في لبه لا يتصل بها على الإطلاق فهي في نهاية الأمر حلقة وصل بين الماضي والحاضر وعنوان لذكرى عذبني الحنين إليها وملامح لأيام محبوبة سعيدة لن أنساها ما حييت. ولكن اغفر لي يا صديقي، لقد كذبت. تبا للماضي وللحاضر. أحب هدير فقط. ولم يكن الماضي سوى حلقة الوصل بيننا. وسواءا أعجب الأمر أي إنسان أو لا فأنا أحبها وأريد منك أن لا تحاول تغيير رأيي بها حيث أنك كلما عاتبتني فيها كلما أحببتها لأن غيرها ذكرها عندي.. أرجوا أن تفهم يا صديقي. أهواها لدرجة كبيرة جدا. ومستعد أن أفعل كل ما تطلبه مقابل أن أتزوجها. إنها ليست صفقة أو أي شيء من هذا القبيل. ولكن ما المشكلة؟ ألأنها لا تحبني؟ لا بأس! سأجعلها سعيدة وسآخذها لحيث تريد ومتى تريد وأيا كان ما تريد فأعتقد أني مستعد لتلبيته لها. فلماذا؟ النساء يعشقن المال ويحببن من أجله حتى وإن كن غنيات! لا بأس سأجلب المال وأتزوجها وعندها ستكون قد أحبتني في النهاية ونعيش معا حياة سعيدة إلى الأبد.

أعذرني، لقد تكلمت كثيرا ولكنني بالرغم من كل هذا شخص واقعي نوعا ما. فأنا مدرك أنني لن أحصل عليها حتى لو أتيت بأموال الدنيا بين يديها. ليس لأنها لن ترذخ ربما أو ما شابه بل لأنني لن أفعل ذلك أبدا فأنا موقن أن ذلك مستحيل وضرب من العبث والجنون. وأنني وهي مختلفان .هي شيء وأنا شيء آخر. هي من طبقة وأنا من طبقة أخرى. هي من مجتمع وأنا من مجتمع آخر. هي فتاة لها ميولاتها واهتماماتها وأحلامها وآمالها وأنا شخص ليس لدي اهتمامات ولا ميول ولا أحلام ولا شيء. هي هدير وأنا أنا. كانت حلمي الوحيد وقد أدركت مؤخرا أنه مجرد حلم لم يعد منه إلا بعض الفصول الفارغة. فصول ومشاهد لازالت في مخيلتي موقن من عدم تحققها مطلقا.

آه يا محمد! لقد أصبحت منذ أكثر من عشرين سنة مرهقا جدا. بالعمل الغير مستقر وبالحياة وبكل شيء. لم أعد أشتهي شيئا او أنوي فعل شيء.

في الحقيقة أشتهي أمرا واحدا. أن أعيش في مكان لا يراني أحد فيه مدة طويلة. ثم تتبخر روحي لحيث لا يمكن لأي شخص اللحاق بها".

هل ينفع التمني يا ترى؟ يا نفسي! أطيبة أنت أم حمقاء أم لصاحبك طبع لا يتغير كما الجميع؟ أعطاني حارس العمارة ظرفا كان رسالة من محمد.. عندما رأيت اسمه على الغلاف الخارجي شعرت بسعادة. ثم حين فتحت الظرف كان بوسعي عد كلمات قلائل مكتوبة على طرف الورقة بخط رقيق وحينما قرأتها خاب ظني، وكان للحقيقة طعم مر كعادتها. فيا ليتني لم أكتب إليه ولا حرفا واحدا وليته لم يكن صاحبي منذ البداية وليت ما كان لم يكن. وهل ينفع التمني يا ترى؟..

" أقطن بالحي الصناعي فإن أردت يمكنني أن أجد لك عملا بالمصنع تعول به نفسك. العنوان على الغلاف"

سمها كيفما شئت يا محمد.. لا أستجديك، ولا أطلب منك مالا ولا عملا، إنك شخص وغد، أنت تفهم ما كنت أرمي إليه من كلامي وقد أخطأتُ حين آذيتك من قبل لكنني اعتذرت منك بيد أنك.. بالفعل نفد صبرك. أدرك الآن أنني كنت مخطئا لما وددت إعادة خيوط المودة بيننا ففي نهاية المطاف.. إذهب وعملك ومصنعك ومالك إلى جهنم.. هل تعتقدني محتاجا للدرجة التي تجعلني أستجديك مالا؟ وإن كنت محتاجا بالفعل فهل سقطت كرامتي للهوة التي أسألك فيها إطعامي؟ لقد احتقرتني وحسبتني حشرة لما أحببت أن نعود أصحابا كما في السابق.. أنت يا محمد لست أفضل مني ولا أكرم ولن تكون خيرا مني لأنني فاشل في مجالات حياتي وأنت ناجح.. لم يكن عليك أن تصير وغدا هكذا.. لكن.. على كل.. شكرا لأنك خيبت ظني فيك. ولا بأس.. إنني معتاد على الخذلان. لن يصلك شيء مني أو عني بعد يومك هذا الذي استصغرتني فيه وأهنت كرامتي.. لن يحدث ذلك فاطمئن.

تلك هدير ومضت ومن قبلها عامر وهذا محمد قد قطعني ودراسة من قبل حرمت منها وذلك عملي قد خسرته وسجن قد دخلته وحياة أضعتها ومات أراها دنت ممن قارب الخمسين.. و.. لما أدركت ذلك جيدا وبدا جليا واضحا لناظره جلست للحظة على طرف سريري المتسخ المبعثر. شعرت بضيق، وحزنت. وليس هذه المرة من أجل فقد أي شخص أو أي شيء بل من أجل نفسي.. لما أدركت مقدار ما مررت به وثقل ما حملته من هموم طوال حياتي علمت أنني حملتها أكثر مما ينبغي بكثير واقترفت أخطاء لا يمكنني إصلاحها.. ومر شريط الخمسين عاما أمام عيني فرأيت حياة في مهب الريح.. عندها ازددت حزنا وكربا وأجهشت بالبكاء وأنا ذلك الكهل وازداد بكائي لما رأيتُني هينا لتلك الدرجة وانهرت على نفسي كطفل لم يبلغ الفطام بعد.. وبين

جدران تلك الشقة الكئيبة بكى ذلك البائس لهوان نفسه كما لم يبك أحد من قبل أبدا.

صباح اليوم التالي أتلفت كتبي القديمة وحطمت هاتفي وأغلقت النوافذ والأبواب وسلمت الشقة وحملت حقائبي ورحلت.

هؤلاء السجناء الحمقى لا يفهمون ما تمر به يامراد البائس ولا يستوعبونه، ليس لديهم أدنى فكرة عما مررت به من مآسي الواحدة تلو الأخرى ويقرؤون بين ثنايا وجهك الشقاء ثم يغضون الطرف عنه كأنهم يحاولون تكذيب عقولهم وتصديق ما تتفوه به ألسنتهم من هراء ومن ذلك أن يقولوا بكل وقاحة أنك لم تر شيئا من هذه الدنيا.. بلى أيها الأغبياء، رأيت ما لم تروه وسمعت ما لم تسمعوا.. قسما، لقد كذبوا.. أبناء العاهرة، لم تسقط عين ذلك الخنزير على كف أي منهم وسقطت في كفي.. لست نادما عما حدث له لكنني نادم عما حدث معي، أن أُعاقب في الدنيا فأُحرم حريتي طوال ما تبقى من حياتي وأدخل الجحيم بعد موتي، وكل ذلك من أجل أنني أرحت العالم من شخص فاسد مثله، لقيط من ذلك النوع.. آه، لو كتب الله لي العودة لتلك اللحظة لانتزعت عينه الأخرى ولاستمتعت بصياحه كالجان مرة ثانية.. لقد حذرته من مغبة اللعب معي لكنه استهزأ بما قلته من كلام، لم أسبه بادئ الأمر ولم أشتمه ولم تكن بي نية للإصطدام به أصلا وتجاهلته مرارا وتكرارا فلم يتعض. إعتقد أنني ألعب مع أمه الفاجرة، ولم أكن ألعب. ما أنا فيه كاف لأن يشغلني عن اللعب. هو لا يعرفني، ولا أعتقد أنه التقى بأمثالي من الدواب.. الدواب من النوع التي تكره أنفسها، وحقدها على من حولها يتضاعف يوما بعد آخر.. أقسم باسمك الأعظم يا ربي أنني لم أكن أريد ذلك لنفسي، ولم أحب أن أكون دابة، ولقد أحببت نفسي من قبل ولم أعتقد يوما أنني سأكرهها وأحقد عليها وأشعر بذلك الإنقباض في صدري متواصلا دونما توقف.. ثم ماذا يريد مني البعض بعد كل ما حدث؟ أن أبتسم كالأبله في وجوه من لا أعرفهم؟ لن أبتسم في وجه أي كان.. ولما أصر صاحب بيت الدعارة ذاك على جذبي لمستنقع الوحل خاصته صعدت الدماء إلى رأسي واصطكت أسناني ببعضها وأضلمت الدنيا أمامي وحتى نطق بآخر كلمة بذيئة دفعت به إلى مستنقعه ولحقت به فرميت بمحتوى الصحن على وجهه الملعون وألحقت به عددا كبيرا من الركلات واللكمات حتى سقط أرضا. لم تزل الملعقة في يدي.. هذا العاهر كجيفة خنزير ملقاة في الوحل والملعقة في يمناي وشيطاني بيني وبينه يلمزني وحين اكتملت الصورة في مخيلتي وضعت ركبتي على رقبته حتى لا يسعه الحراك وانتزعت عينه اليسرى بطرف الملعقة حتى آخر عرق يربطها برأسه الكبير. تفجرت الدماء ودوى صراخه في جميع الأنحاء.. نهض كالثور وألقاني جانبا ولم يكن بمقدوره الرؤية بشكل جيد، كان يشخر ويصرخ كالجمل المنحور ويضع كلتا يديه على جانبي رأسه المحمر بالدماء ثم ما لبث أن شرع في ضرب رأسه على الحائط دونما أدنى شفقة على نفسه حتى خُيل إلي أنه سيحطم الجدار ويعبر من خلاله ليفعل بآخر كما فعل بالأول. إزداد صراخه حتى امتلأ الدكان بأناس مذهولين مما رأوه وامتلأت المساحة أمام الدكان بخلق كثيرين يتساءلون عما

جرى. ولما منعه الحاضرون من تحطيم رأسه أداره ناحيتي، لم تكن عينه اليمنى مفتوحة ولم يرني لكنني شعرت أنه يستجديني أن أعيد عينه لمكانها أو أعيد الزمن للوراء كي يغلق فمه النتن.. يمد يده إلى كل ناحية وماهي إلا هنيهة حتى بدأ ينبش عنقه بأضافره إلى أن أدماه، إلى أن انهار بين الناس أرضا، ثم نبش الأرض، وسكن صراخه فجأة، حتى نفق كالحيوان، فشدت روحه القذرة رحالها إلى جهنم.

روحي ملوثة أيضا، وبعد كل ما حدث لم يعد من فرق بيني وبينه. وطريقنا إلى جهنم واحد لا محالة، على أنني أتأخر لبعض الوقت.. لكن، صدقيني يا هدير، إبن الكافرة ذاك يستحق مصيره وإن لم أجزم أنه سيذهب إلى الجحيم فإنني موقن أن صاحب بيت دعارة كتلك حيث يعمل فيه القاصرات من نسل حواء ليس شخصا محبوبا من قبل الله ولا من قبل من يحبون الله ويحبهم.. وأنا أحب ربي غير أنني سلكت طرقا خاطئة في الوصول إليه، هذا كل ما في الأمر. بيد أن المسؤولين لم يحسبوا لهذه الحُجة وزنا، قالوا أنني شخص خطر على المجتمع ككل ولا ينبغي لأمثالي المكوث أطول من هذا بين الناس حتى لا أسلب حياة شخص آخر.. آه يا أولاد الكلب! كأن لذلك النافق منفعة أو كأن حياته ستزيد المجتمع أو البشرية حبة قمح واحدة. اللعنة عليكم.. أيها الأوغاد.. وبعد أن رأو من الآيات ما جعلهم يصنفونني كمجرم خطير بدا لهم أن يسجنوني حتى تلحق روحي بمن سبقها ممن كُتب على أصحابها الشقاء دنياهم وأخراهم.

هل كرهتني الآن بعد أن أخبرتك بكل هذا يا هدير؟ أظن ذلك! لكن أرجوك يا عزيزتي، لا تكرهيني فلم يعد من شخص آخر يحبني أو يستطيع ذلك غيرك. أرجوك لا تحقدي علي ولا تحتقريني فأنا أحبك. أوتعتقدين بهكذا بساطة يتحول الإنسان من جيد إلى سيء وإلى أسوأ؟.. أرجوك لا تكرهيني بهذه السرعة أيتها الغبية فعندها لن يصبح لأي شيء من كل هذا معنى! أنت الحلقة الأولى لهذه السلسلة القذرة من حياتي وبسببك حدث ما حدث فإن أردت أن تكرهيني فاكرهي نفسك أولا ومن بعدها نكون متعادلين.. لإن حقدت علي فقد غيَّبتِ الحلقة الأولى ولإن حدث ذلك فلن يصبح لأي شيء يتعلق بي أو بك معنى.. ستكون مهزلة وعندها.. سأشنق نفسي داخل هذه الزنزانة. وسينتهي الأمر. طلبت منهم سابقا أن يشنقوني فأبوا إلا رميي في تلك الزنزانة ومن السخرية أن أشنق نفسي..

يا إلهي.. العالم كله ضدك يا مراد حتى أنا أصبحت ضدك فوددت شنقك داخل الزنزانة! فأي شيء يجعلك تستمر في التنفس للحظتك هذه أيها الفاشل؟.. هل تعتقد أنك مهم لأحد؟ أو تصدق حقا أن هدير ستلقي بالا

لكل ما تقوله أو تحزن لما مر بك؟ أنت لا شيء يا مراد، عليك أن تفهم هذا. أوتظن أيها المثير للشفقة أن العالم سيصفق لك عندما يرى حالك التي وصلت إليها بسبب مفارقتك لمن تترجاها الآن ألا تكرهك، ويقول الناس " أوه.. قصة حب رائعة.. مثير للإهتمام"؟ صدقني، أيها الغبي، لن يصفق لك أي أحد ولن يهتم أي شخص بكل هذا.. هل تفهم ما أقوله جيدا؟ لا أحد يهتم! حتى هدير التي تظن أنها كرِهتك فلن تكرهك، ولن تحبك وإن كان عليها أن ترد عليك فستلتزم الصمت ليكون الرد الأنسب لأمثالك. لقد التزمَت تلك الفتاة الصمت من قبل مرات عديدة لكنك لم ترد أن تستوعب الأمر لأنك أحمق، قروي غبي. ولهذا يا مراد، أنت تستحق ما يحدث معك. طوال حياتك اللامعنى لها ولا وزن ترى مصيرك هو مصير الكون وأنك محوره لكن ذلك ليس صحيحا.. حالك مثير للشفقة.. أوتدري ما الشيء المثير للسخرية فيك لأقصى الحدود؟ هو إيمانك بأن تلك الفتاة ستقرأ ما تكتبه الآن! أبمعجزة ستفعل؟ هل تعتقد أنها متفرغة لقراءة رسالة سخيفة كهذه؟ لم تتفرغ من قبل أن تقرأ رسالتي حب من بضعة أسطر فهل ستقرأ هذا الشيء بأكمله؟ لا تخبرني أن الرسائل القديمة لم تصلها مثلما قالت. بلى وصلتها كلها والبريد الإلكتروني لن يكذب وصديقتها لن تكذب لكنها كذبت وضحكت عليك أيها الفاشل.. لماذا؟! لأنها لم تحبك، هكذا بكل بساطة.. هدير لم تُرِدْك منذ البداية غير أنك تكذب على نفسك وتمنيها، ولو أحبتك لما فارقتك بتلك الطريقة.. إفهم الأمر! أنت شخص فاشل ودمرتَ حياتك لأجل لا شيء. ثم إنك لا تعتبر بأي شيء كأن لا غيرة لك على نفسك. لماذا لم تكن كمحمد؟ أنظر إليه! تأمل حاله وقارنها بما أنت عليه. لقد كنت فيما مضى وهو سواء! تأكل مما يأكل هو وتشرب مما يشرب وتنعم بملذات الدنيا مما ينعم هو منه ومحروم مما حرم هو منه أيضا.. وها هو أين صار من رغيد العيش وطيب المأكل والملبس ونقاء السريرة ومحبة الناس وحسن السمعة.. وها أنت ذا! كان طيعا لوالديه ولم تكن أنت سامعا لما تقوله أمك الأرملة المسكينة. أراهن أنْ لو أمرته والدته في ما مضى ألا يذهب إلى المدينة لامتثل.. أما أنت.. لقد كان جادا في دراسته حتى يحصل على عمل يحسن به مستوى عائلته المعيشي وقد أتى مجهوده ثماره فحسّن بذلك حياة القرية بأكملها حتى شفق على حال أهلك فدبر عملا لأختك يقيها مرارة الجوع.. أهلك الذي كنت أنت الأجدر بإعالتهم بيد أنك فاشل. وحين كان ينبغي عليك الجد في دراستك والإهتمام بما أتيت للمدينة لأجله وجمت وجمك قِبل الضياع.. على الأقل لو أحبتك تلك البنت لكان للأمر معنى لكن أن تترك الأهم وتغوص في وهم دمر حياتك.. هذا قسما إنه لضياع.. فابك عمرا أضعته علَّ صداع النحيب ينسيك مرارة الفشل.

آه.. حتى أنت يا نفسي لم أنجوا من ملامتك؟ ما عساي أفعل؟ لقد حدث ما حدث وانتهى الأمر على أسوإ حال فمالذي تريدين مني فعله؟ أالشنق هو الحل الأنسب؟.. الحراس.. أبناء الكلب يمنعوننا من الحبال والسكاكين فهل أقطع أوردتي بأضافري حتى ترتاحي؟ ثم إني بكيت ما يكفي لمدة طويلة جدا فدعيني وشأني.. لا يهمني ما تراه هدير في من عيوب.. فالأكن حشرة بمنظورها، لن يغضبني ذلك فأنا بالفعل حشرة. لا يهمني أأحببتني أم لا، ذلك شيء لا يعنيني وهو أمر يخصها. لقد أخبرتها منذ البداية أنه لا ينبغي عليها أن تحبني حتى تكتمل مشاعري تجاهها. وهل تصدقين أنني أكتب هذا الشيء حتى تقرأه هي؟ بالتأكيد لن يحدث ذلك! ليس الأمر كونها سيئة أو جيدة فتتكرم بقراءتها بقدر ما أن ذلك أمر مستحيل..

إعتادت نفسي أن توبخني هكذا لوقت طويل لدرجة أنه لم يعد يؤثر ذلك في إطلاقا ولما تبين لها أن ذلك لا يعبر إلي توقفت عن لومي وصار الفراغ كل ما لدي.. لم يكن فراغا قبل أن ينتقل شريكي في الزنزانة لجناح آخر. كره ذلك الجو الكئيب بعد فترة قصيرة فطلب من الحراس نقله وكذلك فعلوا. هو ليس شخصا سيئا أبدا ولم يكن بيننا أية مشاكل حتى ذهب. لا ألومه على ذلك فهو الذي أراد أن يكون الجو داخل الزنزانة مرحا وباعثا للبهجة بقدر المستطاع ولما فشل في ذلك يئس مني ورحل. هو من عمّر المكان قبل مجيئي لوقت طويل، لقد مضى عليه أكثر من سبع سنين في هذا السجن ولا زالت بضع وثلاثون سنة سيمضيها. هكذا أخبرني في أول يوم لي هناك، وأخبرني أيضا أن شريكه الفارط في الزنزانة تم إطلاق سراحه، هذا الشخص صادق بعض الشيء في ما يقوله لذلك فقد قال لي أنه بكى لما بقي أسابيع لوحده داخل هذا المكعب الضيق.

محمد شخص جيد يا هدير، لا أقصد ذلك الوغد الذي كان صديقي يوما ما بل أتحدث عن شريكي في الزنزانة قبل انتقاله. حدثني عن الكثير من الأشياء ولم أحدثه أنا بشيء. من اليوم الأول طلبت قلما ودفترا وشرعت في الكتابة دونما أدنى كلمة أنطق بها حتى شعر بالإحراج لصمتي كأن بيننا شُحنة من نوع ما، سالبة ربما. بدأ هو بالحديث.

- أنا.. أنا محمد..

إلتفتّ إليه

- مرحبا بك يا.. يا محمد.

عندما لاحظ أن الجو أصبح ألطف شرع في الكلام بأريحية أكبر

- بل أنت، مرحبا بك، لا أنا.. أنت من وصل لتوه.

- لا فرق

- كم سنة لديك

- أتسأل عن مدة محكوميتي؟

- نعم

- ليس هنالك مدة.. أنت تفهم ما أعنيه

- هذا سيء.. يبدوا أنك ستواصل الكتابة مدة طويلة هنا

تقدم نحوي ناظرا إلى محتوى الصفحة الأولى من الدفتر وقال

- مالذي تكتب؟

أزحت الدفتر جانبا وقلت

- يا.. محمد! أليس لديك شيء آخر تقوم به؟

فهم أنني لم أرد منه الإطلاع على محتوى ما أكتب فقال لما جلس على طرف سريره

- أتمنى أن تطلعني على قصتكك حينما تنتهي منها فكما ترى، المكان باعث للضجر.

- سأفعل، إن كان لذلك سبيل.

- مالذي تعنيه

قلت منفعلا

- لا أعني شيئا.

- أعرف أنك حزين لأجل أنك ستمضي حياتك هنا للأبد لكن هنالك أمل أن يصدر عفو من جهة ما وستنقص مدة سجنك عندها ليكون بإمكانك الخروج بعد وقت قصير نسبيا.

- لا آمل ذلك

- هيا يا رجل.. لا تكن سلبيا لهذه الدرجة.

وددت أن أضربه لقوله الجاهل هذا لكنني لم أفعل بل أردت وضع حد لكلامه الغير مجدي

- كم لك من السنون هنا؟

بدا عليه السرور لسؤالي هذا ظانا أنني أود الدخول معه في ثرثرة لا معنى لها

- سبع سنوات، شاركت هذه الزنزالة طيلة تلك الفترة مع أحد الحمقى الذي أُطلق سراحه وتركني في النهاية هنا وحيدا، و.. هل تصدق؟ لقد بكيت يوم ذهب ووجدتني وحيدا هنا، ثم ها قد أتيت أنت. الوحدة شيء سيء، لا أنصحك بتجربتها و..

قاطعته

- وكم تبقى لك؟

إستلقى على السرير مطرقا في التفكير ناظرا إلى السقف قائلا

- الكثير! حُكم علي لأربعين عاما بتهمة حيازة المخدرات.. أنا لا أستهلكها مطلقا ورغم ذلك حكم علي جورا بكل هذه السنين وكما ترى، لم يمض منها ربعها حتى..

قاطعته مجددا

- جيد جدا يا محمد، لا أعتقد أن سنواتك الثلاثين القادمة ستمر على خير ما يرام بيننا إذا استمريت بثرثرتك هذه معي.

دهش في البداية من كلماتي اللئيمة هذه ثم ما لبث أن تنهد وأغرق نفسه في صمت طويل حتى نام وانكببت على الكتابة من جديد فعادت الزنزانة ساكنة كلحظة دخولي إليها.

لم أحب أن أكون سيء الخلق معه لكنني أسمع منه ما لا يروقني.. وكما أخبرتك يا هدير، هؤلاء السجناء حمقى! يقول هذا الغبي أن الوحدة شيء سيء لا ينصحني بتجربتها! الأجدر به أن يعرف عني الكثير حتى ينطق بمثل هذا.. أن يعرف المعنى الحقيقي للوحدة من خلالي أنا الذي أُدخلت السجن الإنفرادي ولم أبلغ العشرين من عمري بعد.. آه.. أنا أقتل شخصا لكنني لا أرميه داخل زنزانة كتلك. أولاد أمهاتهم العاهرات، لو خُيِّرت الآن بين قتل مأمور السجن ذاك الذي وضعني في الإنفرادي وذلك الداعر لاخترت الأول ونزعت أحشاءه.. لكن صدقيني، لما وضعته في السجن الإنفرادي أبدا.. وفي

ذلك السن؟ اللعنة على الحراس.. أبناء الكلب.. ثم يخبرني هذا الغبي أن الوحدة شيء سيء لا ينصحني به.. إذهب إلى الجحيم. وأغلق فمك عني فمثلي في غنى شديد عن أقوالك.

تحدثني نفسي أغلب الأحيان عن أشياء غير مفهومة وليس من هدف لها بيد أنها منطقية نوعا ما.. لعل نفسك قد حدثتك بها في ما مضى. ماذا لو حدث وتزوجنا يا هدير؟ حقيقة، لا يمكنني تخيل ذلك مطلقا. ماذا بعد ذلك؟ كيف يسعنا العيش جانب بعضنا البعض؟ وفي أي المواضيع سنتحدث؟ وإلى متى سنبقى معا؟ سيكون بوسعي رؤية وجهك كل صباح تقريبا، طوال حياتي، وسنعيش حياة طبيعية جدا لتكون مملة فيما بعد. إنه كابوس متواصل أن نعيش معا يا هدير.. أتساءل كيف للمتزوجين في هذا العالم ألا يُجَنوا من تلك الحياة. ستتلاشى المودة بينهما شيئا فشيئا إلى أن يصيرا تمثالين متحركين.. وهما اللذان حلما قبل زواجهما بحياة ملؤها القربى والألفة والوداد سيكتشفان بعد برهة من الزمن أنهما خُدعا.. ومالذي خدعهما يا ترى؟ شيء يسمى الحب.. هلا أخبرتني يا هدير، من فظلك، ما معنى هذا الشيء؟ ماهو الحب؟ إنه قذارة الأنفس، كيف لبشر أن يحب بشرا مثله؟ أن يهوى الإقتراب منه.. لقد رأيت مرارا في المدينة أنثى وذكر يضعان كفيهما في بعض، يتمشيان ويضحكان. أشعر كلما تذكرت ذلك المشهد بالغثيان.. قذارة أن يقترب بنوا البشر من بعضهم تلك المسافة. وتحت مسمى الحب تختلط الناس بتلك الطريقة.. والحب يا هدير.. قرف مثير للإشمئزاز. لماذا لا نجد في جميع الأديان تحريما لهذا الشيء؟ أخجل من نفسي كلما تذكرت أنني شعرت بمثل هذا الشيء تجاهك.. أنت بشر، صحيح؟ كيف أحببتك إذا؟ إنه حقا لأمر غريب.. ربما لم أحبك لكنني أقنعت نفسي بذلك حتى يكون ثمة نوع من الاستقرار داخلها أو عل ما مر بي كان مجرد حلم بارد وسخيف.. ففي النهاية، من يدري؟ لا أحد يجزم في المنام أنه بحلم ولا في الحقيقة أنه بمنام. يمكن أن أكون في لحظتي هذه أحلم وسأستيقظ بعد وقت قصير لأدرك أنك غير موجودة من الأساس. كيف لعاقل مثلي إذا أن يقترب من بشر ويحبه؟ أتذكر أن أروى أخبرتني يوما أنها تحبني. لم أجبها لكنني شعرت بغثيان داخلي ودوار.. لذلك، من أنت على كل حال؟ فالتكن عينك زرقاء والأخرى خضراء والتكوني ذات شعر نادر الوجود والتكوني طيبة القلب وخلوقة وأجمل امرأة على البسيطة ففي النهاية، ستبقين بشرا لا يفرقك عن غيرك شيء عدا أنك مزركشة بخلاف الآخرين. والتكوني صاحبة ابتسامة سالبة للألباب والتكوني صاحبة الصوت الرقيق والتكوني كيف ما تريدين.. لن يغير ذلك من لبك شيئا.. ولن يتغير جوهرك الذي يرتسم جزء منه في نظراتك. تلكما العينان!.. آه.. لو يعرف الموتى شدة اشتياق الأحياء لهم لطلبوا من الله إحياءهم حتى يُروا ثم ليعودوا ترابا كما

كانوا.. لهان مما اشتد على الأحياء شيء وإن يسيرا.. لا يوجد شيء اسمه حب بل هو الإشتياق.. أشتاق إليك ولا أتمنى سوى أن أراك. ولماذا أريد رؤيتك؟ آسف.. أنا كاذب كبير يا حبيبتي. أنا شخص سافل بكل ما للكلمة من معنى. أنا يا حياتي أصابني جنون فهلا أجبتِ عني سؤالي؟ لِم أريد أن أراك؟ لأنني أحبك. ثم اليكن الحب محرما في دين تالله لأكفرن به أول الأديان.. والتكن كلمة أحبك باعثة للإشمئزاز، لأزيدن من محبتي تجاهك ثم ليرض من رضي واليسخط من سخط واليذهب الفكر والوعي والفلسفة إلى جهنم أو حيث شاؤوا والألحق بهم أنا والتنقلب سماوات هذه الدنيا على أرضها واليحدث ما ينبغي وما يمكن وما لا يمكن أن يحدث.. لأحبنك أكثر من محبة أي شيء. الحب يا دنياي دين، مجبول من رحمه الله الدخول تحت لوائه. وجميع المشاعر جاثية من خلفه ناكسة رؤوسها. فالويل كل الويل لمن لم يؤمن بالحب ولم يقدسه.. ومن دعائم هذا الدين الصدق في القول والمكوث على العهد. ولقد عاهدتك ألا أهوى غيرك مذ عرفتك وإني لأحرص الناس على مثل هذا الركن العظيم. وليتبين لك الصادقون من الكاذبين تحققي.. وحتى يسعك ذلك فاعلمي أن مجنون القوم أصدقهم وأكذب العابدين أهل الجفاء النساؤون المتناسون. لذلك، ستبقين جوهرة أنارت حياتي أبد الآبدين. سأحبك دونما تفكير. ولإن كان علي أن أخبر عن سبب ذلك لقلت أن البنت المعنية هي هدير. هذا كل شيء..

مر الآن أربعة آلاف واثنان وثمانون يوما مذ دخلت السجن. إن لم تخُنّي ذاكرتي فإن عمر أمي الآن قد قارب التسعين. تسعون حولا يا رب السماء! نصف هذه المدة لم تر تلك الأرملة ابنها الوحيد. ولا تدري أحي هو أم ميت، أشقي أم سعيد، أيتذكرها أم لا. إن والدتي طيبة القلب يا هدير ولإن عاشرتها، متيقن أنك ستحبينها. عندما كنت صغير السن أهدتني عنزة حمراء.. وهذه الحمراء، تعرفين؟ صغيرة أيضا. وكنت أكبرها بأربع سنوات وعمرها شهران. بالرغم من ذلك تسبقني هذه الأخيرة دائما.. كانت صديقة وفية. للعنز وفاء خاص به، أتعلمين؟ ومعاشرته هي الأطيب والأطيب جواره ورائحته الزكية المتفرد بها. تجدينه بكل الألوان بهجة ألقاها الله بين الماشية على الأرض.. كزهور الربيع بين الحشائش الخُضر وهل في غير الربيع زهور.. كقطرات المطر الأولى في الخريف وهل تنزل تلك الأشياء من السماء إلا في فصل الخريف مبشرات للقانطين ومنذرات لجيران الأودية والأنهار ورحمة من لدن حكيم خبير.. أيا عنز بلادي الباردة تذكرني فإني مشتاق إليكم وأرضكم. أرسلوا مع الريح بين السحاب أصوات ثغائكم رعدا يؤنسني في وحدتي ورائحة نسيم صباحٍ مختلطة مع عطر البرتقال تذكرني بطفولتي وشبابي. فالأسمع تغاريد طيورك يا قريتي والتكن عبر نسيم شتوي

لافح بارد ونقي. رشقات مطر القرية أسمعنيها يا عنز وانثر عبق التراب المبلل زكيا يصلني من خلال النافذة الضيقة لزنزانتي فأستجيب لها فرحا وحبا، وخيلاء مني وفخرا أرسل إليكم عبر الرياح الشمالية أغنية ربيعية ملؤها الأمل والطمأنينة يؤنس بها الرعاة من أهل البادية فيزيد المسرور سرورا ثم تأتي على جبالك العالية وثلوجها بقممها فتكسوا ساكنيها سلاما على ما هم عليه من سلام ثم تنزل إلى القرية وتصافح البرتقال والصنوبر والأرز فتأخذ من كل شيء أطيبه وتستمر إلى بيت لا أدري أموجود هو الآن وأهله أم لا فتبلغه ونازليه سلامي وحبي وامتناني ومصائبي وهمومي وأمراضي وأسقامي وتبا لك يا هدير وتعسا! لقد تركتني أخامر هذه الأفكار الملعونة وحيدا ضائعا في فراغ لا متناه تملؤه آهاتي وأحزاني وموتي قريب مني يسخر مني فكم لي من السنون وحيدا وكم لك منها عني بعيدة وكم يتحمل الرجل من الهموم حتى يسقط مغشيا عليه.. فيا موت يا متربصي، أفلا كنت قد زرتني منذ زمن طويل حتى لا أصير إلى ما أنا عليه! ماذا علي أن أفعل؟ ماذا سأكتب؟ ماذا سأقول؟ وإلى من سأكتب؟ ومن هدير هذه التي أهلكت حياتي ودمرتها؟ وأي حياة ستكون أصلا لو لم تكن تلك البنت من ضمنها؟ وما معنى حياتي؟ وهل من فرق بينها وموتي؟ ومن أنا؟ مراد! من مراد؟ ذلك العاق لأمه الأرملة؟ الجالب لعشيرته العار؟ المتشبث بفتاة عاهرة كهدير لا تفهم في الحب شيئا ولا يعنيها شيء؟ المريض المجنون الذي ينعت جميع بنات حواء بالعاهرات لأنه جاهل لا يفهم من المقاصد شيئا؟ الذي يكره نفسه بشدة؟.. يا نفسي يا مجرمة! أيا عاهرة عصري، أنا أكرهك. فالتدركي ذلك جيدا والتتيقني بحقدي عليك ثم اعلمي أنك عدوتي الأولى والوحيدة والأخيرة فاحذري أن يصيبك مني بعض الأذى لأنه يا عاهرة، لن أرحمك إذا ما قدرت عليك.. يا مراد! أنت عجوز أبله. هل لي أن أشبهك بالكلب لو سمحت؟ أنت لن تمانع أليس كذلك؟ أنت كلب وفي حقا. لأهلك؟ لعشيرتك؟ لقريتك؟ لموطنك؟ لدينك؟ لنفسك؟.. لا! أنت فقط، أيها الغبي، وفيّ للعاهرات.. أصمت أرجوك..هدير ليست عاهرة يا مراد.. لا تنعتها بالعاهرة مرة أخرى فهذا عيب عليك.. سامحيني يابنة أمي أرجوك. إكراما منك اغفري لي. أنا شخص مجنون فلا تجعلي جل تركيزك على هذياني. المشكلة أنك لا تردين علي. يا هدير! لا تكتفي بالصمت يا حبيبتي فهذه وقاحة. قولي ما تريدين قوله. إنعتيني بكل الألقاب. تحدثي في أي شيء تريدين. القاعدة العامة ألا تصمتي.. هذا الأخير قاتل. الصمت والسكون مدعاة للجنون. أتريدين مني أن أجن؟ عهدتك طيبة القلب لا تمنين لأي شخص هذا.. أنظري هناك! إنه خنفس أسود.. أترينه؟ لم أجد له اسما بعد.. لقد رأيته أمس ملتصقا بالسقف لساعات. لا ينطق بشيء ولا يتحرك، هذا المخلوق القبيح!.. أتساءل، كيف باستطاعة هذا الكائن ألا ينتحر وشكله

مقرف لذلك الحد؟ لا شك أنه رأى نفسه من خلال المرآة إحدى المرات فلا بد أنه صدم لذلك المنظر. لكنه، أعتقد أنه اعتاد على ذلك ولربما صار يفتخر بشكله السيء فيما بعد.. هو لا يفهم الأمر جيدا ولا يراه بالوضوح كما نفعل ذلك نحن بنوا البشر ففكرت أن أدهسه بعد إسقاطه من السقف كي أريحه من نفسه. لكن هذا الكائن، بالتأكيد خرج ليقتات. أو ربما ليجمع الطعام لأولاده الأربعة، لعلهم خمسة أو ربما عشرة أطفال. من يدري؟ أنا لم أرهم لأخبرك يا هدير عن عددهم بدقة. أعدك أن أخبرك بعددهم عندما يخرجون من عشهم، فلا تقلقي.. لإن دهسته فسيموت الصغار جوعا. سينتظرون أمهم لساعات وأيام ولن تأتي وسيشعرون بالخوف والحزن والجوع إلى أن ينتهوا.. وأنا لا أريد أن أكون سببا لهذه المأساة. أقسم أنني بالرغم مما أنا عليه طيب القلب لا أريد أذية أي مخلوق.. حتى ذلك الشخص الذي نزعت عينه فمات إثر ذلك لم يكن يستحق تلك القسوة. لماذا لا توجد قوانين تنص على إعدام القاتل؟ أنا لا أعرف الخسيس الذي يضع القوانين في الدولة غير أنني موقن أن البشر أوعية مختلفة تحمل أرواح متشابهة.. كان عليهم شنقي أو رميي بالرصاص أو حرقي أو شيء قريب من هذا. لست أفضل منه على أي صعيد. أنا سلبت حياته ومن يظن نفسه أنه يدافع عنه سلبوا مني حريتي فقط.. يا قاضي يا ابن الساقطة! أتراه عدلا استبدال الروح بالحرية؟ فالتذهب الحرية إلى الجحيم. الخلاصة أنني أتنفس وآكل وأشرب وذاك المسكين لم يعد له وجود.. إنه فعلا مسكين مظلوم بالرغم من امتلاكه لبيت دعارة قذر. هو في النهاية لم يجبر العاهرات على العمل داخله بل أتين بإرادتهن.. وإن كن قاصرات.. من يهتم؟ فاليطلبن الطعام عند الأزقة خير لهن من بيع شرفهن! الكرامة شيء والشرف كل شيء. والأولى تخص الفرد والأخرى إن ضاعت تضر القريب والحبيب والأهل والعشيرة.. أما الكرامة.. ألا زال من بني آدم من يتحدث عن الكرامة الآن؟ لقد سقطت كرامتي أيضا حينما شفق علي أحد باعة البيض وأعطاني خمس مسلوقات يشتد بهن عودي وإن قليلا.. شفقته سكين لكن الجوع سيف حاد ونظرته إلي جعلتني أعقد العزم على الإنتحار لكن الجوع.. يا هدير أتمنى ألا يبقى شخص في هذا العالم جائعا. واليعلم من ضاقت به دنياه أنني موجود داخل الزنزانة التاسعة والسبعين بعد المائة الرابعة مستعد أن أتقاسم معه طعامي.. الطعام في السجن مجاني. ألا يعرف الجوعى هذه المعلومة القيمة؟ ليس عليهم سوى ارتكاب جريمة. لقد كسرتُ فيما مضى يد أحد موظفي السوق فحُكم على بخمس سنوات. فاليكسر إذا كل جائع يد شخص ما واليملؤوا بطونهم. الأيادي المكسورة تُجبَر لكن البطون إن غاب عنها الطعام لمدة معينة يموت أصحابها..المعظلة الأكبر أنهم أغبياء لا يفكرون بعقلانية. أيخافون على

حريتهم؟ ماهذه السخافة؟ عن أي حرية يتحدثون؟ فاليسلبوا حريتي والأملأ بطني. لو كانوا أحرارا في بلادهم لما كانوا جوعى في المقام الأول..

وا أسفا عليك يا مراد وأنت بحالتك التي انتهيت إليها صرت أهون شيء في الدنيا.. وا أسفا على الرجولة.. كرامتُك ابكها يا ابن الفقيرة. أتنتظر أن تجيبك تلك الفتاة؟ أتؤمن بما تفعله الآن؟ لن تتلقى هدير منك شيئا وعليك أن تفهم هذا.. هي غنية وأنت ولدتك أمك فقيرا. الأغنياء والمعوزين لا يلتقون أبدا. آه... أنا يا رب تعبت من نفسي ومكاني.. واسمك الأعظم، لقد شارفت على الإنهيار.. أنت يا إلهي مهما ازدادت مآسي لن أكرهك بل أحبك أكثر وأكثر. لكنك من خلقتني بالتأكيد عارف بحالتي وبذلك الصدع داخلي فأتمنى أن تجبره لأنه يؤلمني بشدة.. المخلوقة التي عرّفتنيها لن تُصلح في شيئا لكنك قادر على فعل ذلك وأكثر. لم يتقبلني منذ صغري أحد وإن لم تقبلني أنت فمن ذا الذي سيفعل؟ الناس حينما ينظرون إلي يرون مجرما خطيرا لكنهم لا يرون مسكينا. الجوعى مساكين، المقهورون مساكين والسجناء المقهورون هم المساكين الأولون في حزب البائسين. أدركني فإنني أنهار وإلا فابعث هدير لتدركني وإلا فابعث أمي أو هناء أو أروى أو عامر أو أمتني فمرارة الحياة أفقدتني كل شيء. حتى البكاء، بخلت دموعي فرفضت النزول أو علها جفّت.

لا تقلقي يا هدير إن قرأتي مني هذه الكلمات فهذا حالي منذ وقت طويل جدا ولم أعد أبالي أنا نفسي بخواطري فلا تلقي بالا لما أقول. يا هديرتي.. أردت إخبارك مجددا أن محمد قد صنع نسخة منك. صدقي ذلك أو لا تفعلي غير أنني رأيتها وأهدانيها فعاشت تلك الكتلة الحديدية معي لمدة قصيرة، داخل شقتي التي عرفتها.. كمشروعه الذي أتمه أيام خروجي من السجن بمدينة الوسط الشرقي حين كنت شابا يافعا. محمد كان طيبا حينها وشابا يافعا مثلي على أنه كان خريج كليات بينما كنت خريج سجون. تمحور مشروعه الختامي بكلية التكنولوجيا حول الروبوتات الشبيهة بالبشر والتي '' ستحل محله في العديد من الميادين في المستقبل القريب'' كما يقول، ولقد لقي عمله ترحيبا كبيرا داخل الأوساط العلمية بالشكل الذي جعل إحدى الشركات الكبرى تقوم بشراء آلته التي صنعها بعشرات ملايين الدنانير.. إنه لأمر رائع أن يتوفر في هذا العالم روبوت على هيئة آدمي قادر على البناء في أي مكان بدقة وجودة عاليتين كما أنه يستطيع التحدث والنطق بمعظم الكلمات التي نستعملها نحن بنوا البشر..

أَوَسأُمضي يابنة أمك البغي في تفسير أشياء لا تخُصّك ولا تعنيك في شيء لا من قريب ولا من بعيد؟! ثم إنك لا تردين أبدا علي فما عساني أفعل لك؟ نعم، لقد صنع محمد كومة خردة شبيهة بك فمالذي يعنيك من هذا؟

لماذا تصرين أيتها البنت الغبية على معرفة هذه الأمور؟ أما أنا فلن أقول شيئا فارضي بهذا أو موتي بغيضك، أتفهمين؟! نعم يا هدير موتي بغيضك! أنا لا أحبك، أكرهك.. أتعين ما أقول؟ أمقتك بشدة أيتها البغيضة. كم كلمة كُتِبت عنك مني إليك للآن؟ كم ساعة تذكرتك فيها ونسيت نفسي؟ كم سنة أمضيتها بين جدران السجون بسببك؟ كم دافعت عنك في غيابك؟ كم تحملت من عنادك وغبائك؟ كم بكيت لأجلك؟ ثم ها أنت ذا الآن على ما أنت عليه من حال وها أنذا! من المغضوب عليهم من قِبَلِك فلم تردي علي ولو بكلمة واحدة. قد كان آخر عهد لي بك أن طلبت منك الزواج فرفضتِ ولم تتوقفي في إيذائي لحدك هذا بل تماديت أكثر فغبت عني ولم أركِ بعد ذلك للآن. أتفهمين معنى أن يبكي الرجال أيتها المرأة؟ النساء كثيرات البكاء لأنهن لا يستطعن التحمل أما الرجال إن سقطت دموعهم فاعلمي أن جبالا من الهموم أُجبروا على حملها في عالم مليء بالأشواك. أنت جاهلة من كثيرات لا تقدرين معنى أن يُحبّ رجُلٌ امرأة. بسيطة ترين العالم باللونين، الأسود والأبيض. لماذا لا تردين عندما أخاطبك؟ هل تظنين أنني مجرد شخص هكذا لا معنى له في هذا العالم أم ترين نفسك خيرا من غيرك مقاما ورفعة؟ أخبرك إن كان عندك شيء مما ذكرت أن لهذا الكون صانعا يديره وأنه الوحيد الذي يحمل أعمدته مانعَها من السقوط لا أحد من خلقه فاعل ذاك، وأن لو أراد لَأبدلك بنعمة أنعمها عليك بِقَما وبصحّة سقما وبدواء داءا وبجمال قبحا. فلا فضل لك على أحد غيرك بل هو فضل من عند الله يؤتيه من يشاء. وقد شاء أن تكوني ممن أنعم عليهم فاليكن تجنبك للكبر ابتغاءا لمرضاته عله لا يبدلك بأسوأ مما أنت عليه.

مصيبة ألا أحبك، بل أهواك يا حبيبة قلبي لكن المشكلة هي الصمت المطبق بين صفحات دفتري هذا. أيُعقل أنك نسيت كيفية الكلام؟ أو ربما نسيتِ القراءة!.. أعتقد أن لدي فكرة أفضل.. إنني على كل حال قاربت من ملإ الدفتر. وإن لم أخبرك فإن الحصول على الأقلام والأوراق في هذا السجن أمر صعب جدا. لذلك، إن انتهت أوراقي فلن يعود لدي شيء أكتب عليه. بالرغم من ذلك فقد التقيت بآمر السجن ورجوته أن يمدني بصفحات بيض وبعض الأقلام.. هو لم يفعل ذلك وآمل أن يلين قلبه يوما ما. للبحر مده وزجره، ولقد رميت قارورة بلاستيكية من خلال النافذة المطلة عليه فلاحظت أنها تبتعد شيئا فشيئا إلى أن غابت عن ناظري. عل رحلتها تنتهي عند الضفة الأخرى. فالتذهب كلماتي إليك بنفس الطريقة إذن.. ثم اعلمي ختاما يا حياتي أنني آسف على كل كلمة سوء قلتها لك من أول لحظة عرفتِني فيها فللأنفس البشرية ضعف يعتريها بين حين وآخر. والتُدركي أنك عندي أشرف مخلوق عرفته في حياتي وأنقى. لن أقول أنني

أحبك لأنك تعرفين ذلك منذ البداية. لن أقول أن الله لن يجمعنا من جديد لأنه الأدرى بذلك. نحن في نهاية المطاف بشر، نصيب ونخطئ ، نحب ونكره، نضحك ونبكي، نعاشر ونفارق، نتذكر وننسى.. لسنا ملزمين بمعرفة ماهية الحياة والموت وارتباطها ببعضها. ولا مجبرين على معرفة بعضنا بشكل كامل.. لا أحد في هذا العالم يجبرنا أن نحب شخصا أو نكرهه أو نفهم أو ننسى. حتى أنفسنا إن أمعنا النظر نجد أنها لا تجبرنا على مقت أي كان أو حبه. على أحدنا أن يكون إنسانا فحسب.. هذا كل شيء! أما عن حالتي أنا فلا تجعليها مقياسا لمدى تأثر الإنسان بمن يحب فأنا شخص مجنون. سأمكث بين رجائك ولومك إلى أن أموت، أما الآن.. فإن جزءا مني لم يغادر بعد.. لهذا فأنا عاقل لحظتي هذه وأتحدث بجدية مطلقة. أحبك كثيرا وتمنيت فيما مضى أن نتزوج لكنك رفضتِ ذلك ولا بأس.. أنا لا أمزح يا هدير. لا بأس حقا. كان مقدرا علي دخول السجن حتى قبل أن أُخلق فكيف يمكننا الزواج؟ أنا في النهاية الشخص الوحيد الذي تحمل نتائج قراراته وليس على أحد تحمل عبئ يخصني لوحدي.

ألاحظتِ أنني أراك مختلفة كل الإختلاف عن غيرك؟ لقد قلتُ أنك غير بشرية ونظراتك الساكنة وندرة جمالك أكبر دليل على ذلك وتفوهت بكلام سخيف مفاده أنك تنتمين لعالم آخر غير عالمنا.. إنسي كل ما قلته يا هدير فأنا موقن أنك بنت عادية جدا آتاك الله من الجمال والمال ما لم يؤت أحدا من العالمين.. لا تطيلي التفكير في هذه الخزعبلات التي أكتبها فهي وأنت أدرى الناس بذلك ليس لها أي هدف أو معنى.. هدير! ما أجمل هذا الإسم! سبحان الذي خلقك وصورك وحسنك على أبهى هيئة يا حبيبة وجملك وكتب لي لقياك في يوم من أيامه المباركات علي والذي كتب علي مفارقتك في يوم من أيامه المنحوسات علي. أوتذكرين؟ في المكتبة كان أول لقاء لي بك. أشتاق إليك ولتلك السنون التي أخذ منها الدهر مأخذه فصيرها جامدة ساكنة باكية حزينة وضبابية لا يرى من خلالها الناظر سوى صور ومواقف وأقوال وأفعال وهتافات وأشكال لكل ما تعلق بما أحببته وفضلته وبجلته وزان في عيني وارتفع مقامه في قلبي وهل في تلك المضغة مكان لبشر سواك. آه.. كنتِ ولازلتِ يا هدير حياتي وموتي وغناي وفقري ومناي وسؤلي وهمومي وأفراحي وجنتي وجحيمي وفردوسي وسقري. يا ربيع حبي، يا رمز حياتي، يا دنياي وأخراي ومصيري.. إنسي كل كلمة قلتها وتذكري لفظة أحبك فقط لأنها لب كتابي هذا الذي بين يديك. ولا تقنطي من احتمال لقيانا يوما ما ونحن فرحون وسعداء فعل الله أن يجعل أشقياء دنيانا سعداءَ أُخرانا ويُبقي لسعداء دنيانا بأخراهم سعادتهم فيلتقي المتحابون والأصدقاء والأولون والآخرون والمُنسَون والغابرون فنكون على ذلك من

الشاهدين.. وأما هذه الدنيا يا هدير.. عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها، إنا إلى الله راغبون..

لحظة قراءتكِ لهذه الكلمات، أكون بأحد مكانين لا ثالث لهما، الزنزانة أو القبر. أما الأول فقد رضيت به وسلمت وأما الآخر فآت لا محالة. وما بين هذا وذاك عمر في مهب الريح، فما الذي تريدين مني قوله بعد هذا يا ترى؟ بلى! لدي ما أقوله.. توقظني نسمات البحر الباردة كل صباح، والشمس تشرق كل يوم، ولا يغيب انعكاس أشعتها إلا بضع أيام شتوية أو يوما أو بعض يوم. أصبح لدي أصدقاء هنا، قط تعود الدخول من النافذة حتى أعطيه نصيبه من الطعام، وبعض الفراخ التي تغني خارجا. حقيقة يا عزيزتي، لست معدما، والأمر ليس بهذا السوء. فائدة أن يكون لك أصدقاء بمكان كالذي أعيش فيه عظيمة لكن المقارنة بين ما يأمله الإنسان وما هو عليه يجعله متكدر الخاطر وحزينا، قياس المسافة بين هذا وذاك تجلب التعاسة لصاحبها والإكتئاب ويزيد هذا الأخير بازدياد طول الأولى. فما بعدُ حالي على أملي ومناي وسؤلي، وهل أنا إلا سجين قاتل، وهل سواكِ يكون أملي، وهل أن تمني عودة الزمن للوراء إلا ضرب من العبث. سهل عليك ملاحظة كوني الأبرع في قياس هذا النوع من المسافات نظرا لإيقاع كلماتي الناعية لكل شيء. لكن اعذريني، هذا ما أبرع فيه.

تتجمع العصافير شديدة سواد الريش كل مساء شتوي قبيل مغيب الشمس بقليل فتبرع في تشكيلاتها السحابية في كبد السماء وتشغلني عن حديث نفسي لفترة. أصواتها تملأ الفضاء صخبا كأنها تتفاخر بحريتها أمام من انتزعت منه فأخاطبها من النافذة وأقول: " أنا رفيقكم الوحيد أيتها العصافير في قبو الخنازير هذا وأنتم رفاقي، فتعالوا لأخبركم عما ألم بصديقكم البائس، واعتبروا بما أقول فَعَلّ الله أن يجنبكم ما ابتلاني به من مصائب الدهر، أحدثكم عن سنيني العجاف فهل أنتم مستمعون؟ لا! أنتم لا تسمعون، ولإن سمعتموني فهل أنتم مجيبون؟ ولإن فعلتم، أفلمثلكم ما لمثلي فتعقلون أو تفهمون؟ ولإن كان ما لاينبغي أن يكون فما عساكم إن أردتم الرد تقولون؟". ولربما صارت كلماتي هذه تراتيل تملى إثر مغيب كل شمس عند هؤلاء العصافير فأنسوا بها فأنست بهم. وكذلك أمثالي يفعلون.

علّه يتاح لك يا هدير لقيى أمي وأختي. هلا أبلغتيها سلامي؟ لا أتذكر أنني حدثتك عنها لكنها رائعتان.. أعرف أنه لا شيء يربطكم ببعض، لكنك غنية جدا وفقيرتان هما فهلا دبرتِ عملا لهما؟ أخبريها أنني أحببتك كثيرا وأن لو كانت نساء الدنيا في جانب وأنت في آخر لاخترتك. لا تذكري أي شيء عن السجن.. لاتقولي لهما أنني قتلت أي شخص. فإن كان ولا بد فقولي أنني رحلت لبلاد بعيدة جدا منذ زمن فانقطع اتصالك بي ولا تضيفي عني حرفا آخر.. هل ستفعلين ذلك من أجلي؟ هيا تكلمي! حسنا، من أجل الفقراء والمساكين افعلي ذلك.. للجوعى والذين يبيتون في العراء، من أجل

الإنسانية، أو الطبقة الكادحة أو المرأة وحقوقها أو من أجل المحبة والمودة أو الصداقة.. راحة البال إذا! أو من أجل ما تؤمنين به وتقدسينه.. من أجل الله تكرمي وافعلي معروفا لهما.. فإن لم يكن من أجل ما تؤمنين به فمن أجلك أنت. فإن كان غير ذلك فالله أولى بهما منك وأسأله ألا يجعلها تحت رعايتك يوما.. وصدقيني يا من لا يربطني بك شيء غير أحلام زائفة وأوهام.. موقن أنه لن يتاح لك لقياهما أبدا..

أمي، أشتقت إليك كثيرا، و أحبك وحضنك. أتمنى في لحظتي هذه لو أرتمي فيه كطفل صغير كما فعلت ذلك من قبل مرات عديدة، فأشكوا لك همومي وما ألم بابنك الوحيد الذي قذفت به الأقدار بعيدا عما كان يأمل وتأملين، أبكي حتى أمل، وأشعر أنني نقيت من ذنوبي وخطاياي، وأعتذر عن سنون جفائي، وأبكي ثم أبكي ثم أبكي حتى ترضين عني فيرضى الله عني فأغتسل من خزيي وعاري. لو علمت يا أمي أن هذا ماكان سيحدث لتركت الدراسة من أيامي الأولى بالمدرسة. لعملت بالحقل طوال حياتي، ولما سافرت للمدينة أبدا ولما عرفت هدير ولا سمعت بها.. آه هدير، أنت لا تعرفينها بالتأكيد، إنها شخص رائع يا أمي، وجميلة وطيبة القلب وخلوقة ولقد أحببتها كما لم يحب رجل امرأة من قبل، ولما أردتها رغبت عني وغابت وروحها فلم أجد أيا منهما.. آه يا هدير، أيتها المحبوبة، ليتني أجدك يوما، وأراك أمام ناظري ولو لدقيقة واحدة حتى أملأ عيناي بك وحتى تدب الحياة في من جديد عل الدهر يعطيني في سويعات حياتي الباقية ما ضن به علي سنوات، ليتني أجد روحك، أو بعضا منها، ليتني.. أيتها البنت الغبية الجافية الحمقاء.. ليتني لم أحبك، ليتني لم ألقاك يوما، ولم آت للمدينة، ليتك يا أماه لم تحمليني برحكمك. لقد أتعبتك مدة وتعبت أضعافها.. ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا.

أردت يا حبيبتي أن يكون هذا الكتاب رسالتي إليك، يمكنك تسميته كتابا أو رسالة أو مجلدا او قمامة أو مجموعة قوارير بلاستيكية قذرة أو كيفما تريدين، أنا أسميه طير الحمام، نعم، الحمام الذي إن طالت به الأزمان يعود لصاحبه، وأنت صاحبة طير الحمام وكاتبها أنا.. أعتقد أنك تدركين ما أعنيه جيدا، أليس كذلك؟ لا أدري إن ستصلك طير الحمام يوما ما أم لا.. لعلها تنزل عند كثير من الناس حتى تصير بين يديك. أنا لا أتحكم في مسراها بل البحر من يفعل ذلك.. فإن بمشيئة الله شاءت نزلت بدارك. وعندما يحدث ذلك، سأكون سعيدا. لم يعد بمقدوري فعل شيء في السجن فأحببت تأليفها. أردت تذكر أول يوم ألقاك به، لقد كان ممطرا، وهو آخر خميس من شهر تشرين الأول في سنة من ضمن سنون ضبابية ضرب عليها الدهر، لا

يرى من خلالها الناظر سوى صور ومواقف وأقوال وأفعال لكل ما يتعلق بما كان يحب ويفضل. وددت إخبارك وتذكيرك بكل لحظة لي معك. ربما لا يعنيك من أمري شيئا ولا تهتمين بأي شيء ذكر في الرسالة ولعلك لم تصلي لهذا الجزء منها ضجرا ومللا، على الأمر لا يهمك لكنه يهمني. وكيف لا وأنا أكتب إليك مُحدّثك عنك داخلي؟ وددت تذكير نفسي بك أكثر، وددت أن أحب أيامي تلك حين كنت سعيدا، أحببت تذكر عامر وإيملي ومحمد والجميع، أردت الحديث عن كل شيء وتوثيق كل لحظة و شعور، فرحة أو حزن، فكرت أنه من واجبي إخطارك أن مكانتك في قلبي مثلما عهدتها. هذا ما أفعله من عدة سنوات، أكتب وأمحوا ما كتبت وأعيد ذلك مرارا وتكرارا وكيف عسى سجين بأرض غريبة أن يمضي الأيام من سنواته الأبدية ولياليها الطوال سوى أن يكتب؟ ما عساي أفعل يا ترى غير أن أخط بأناملي الخشنة ما رق داخلي. ألست بشرا يا هدير؟ أليس بداخلي قلب كسائر الآدميين؟ نعم، أدرك أنني كنت شخصا سيئا. أعرف ذلك لكن.. لكن ألست إنسانا في النهاية؟ أليس لي الحق بفرصة أخرى؟ البشر خطاؤون، وشديدوا الخطإ أحيانا لكنهم خلقوا في أرحام أمهاتهم صفحة بيضاء نقية والأجدر بهذا العالم القاسي أن يعطيهم فرصا كثيرة وهو المذنب الأول عندما دنسهم بقاذوراته يوم كانوا صغارا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. تركتني أنت أيضا يا هدير، أنت مذنبة بهذا، وأنا أسامحك بالتأكيد بيد أنه ما كان عليك تركي بتلك الطريقة القاسية. كنا سنعيش كأفضل ما ينبغي أن يعيشه شخصان على هذه الأرض، أو كما تريدين منا أنت أن نكون، صديق وصديقته، زميل وزميلته، جار وجارته.. أي شيء مخالف لما حدث. لقد أخبرتك من قبل أن تحسني الرفض، أن يكون لرفضك مذاق مستساغ، أن يكون معقولا، لأنه في النهاية ياهدير، محور الإنسان قلبه. أعتقد أنك فهمت إن وصلت لهذه المرحلة من الرسالة ما كنت أعنيه.

عزيزتي هدير، هذا أنا، مراد الشرقي، صديق قديم، شخص من الماضي نسي كل شيء، سواك وحبك، وعندما يمدني آمر السجن بدفتر جديد وأقلام، سأكتب إليك من جديد، أعدك.

أعتقد أنها النهاية الآن، يجب أن أمسك عما أفعله.. أهذا ما يقولونه عند النهايات السعيدة؟ أو مايقال عند النهايات التعيسة؟ أو ما لا يقوله غيري؟ بغض النظر عما يشعر به أي إنسان إلا أنها النهاية حقا، أعني نهاية الحكاية، حكايتنا التي حدثتك عنها منذ أيام لقياي بك. كما ترين، لقد فشلت في التنبإ بها كالعادة وأتانا القدر بما لم نتوقعه أبدا. لا يمكن للإنسان توقع المستقبل مهما بلغ علمه. غير أنها قصتنا وينبغي علينا القبول بما كتب الله لنا. أو هي قصتي أنا فقط، مايهم أنها انتهت. أما محبتي تجاهك فهي باقية، على

الأقل طوال مدة بقائي حيا، فإن انقطعت أنفاسي، لا تلوميني إذ ذاك يا عزيزتي.. فكوني عند موتي حية به وسعيدة بتعاستي ومؤنَسَة بوحدتي وغنية بفقري.. كوني يا هدير مثلما أردتك أو كيفما تريدين. حيث ما أردتك أو حيث ما تريدين.. كوني أو لا تكوني إنما انتهيت أنا. فلست ملكا كالشاه جاهان ولست أنت زوجتي، فمن المستحيل أن أبني من أجلك صرحا كذلك الشيء الضخم حتى تخلد هذه الحكاية للأبد وترتل على ألسن الزوار كل صباح وكل مساء. هي ليست حكاية أصلا يا هدير وليست قصة جديرة بالذكر، إنها مسخرة، مسرح يوناني قديم، تراتيل جنائزية لامتناهية الأنين، مسعى محتم عليه فشله.. سخافة أن أكتب هذه الألوف من الكلمات من أجل إخبار العالم أنني أحب فتاة أعتقد أنها جميلة حسب رأيي الشخصي الذي لا يعني لأي شيء شيئا، كحكايات الشعراء العاشقين، ليس لها معنى، مجرد كلمات متراصة متكررة باعثة على الغثيان مفادها، أيها العالم اللامبالي، أحب فتاة إسمها هدير وافترقت عنها فاقترفتُ بذلك أخطاء كثيرة وأنا حزين لذلك وقد دمرت حياتي بنفسي لأصيرها حكاية تجعلك تبني فوق قبري مقاما شبيها بمقام الشيخ أبي الحسن الشاذلي. العالم يا هدير أعقل من أن يستجيب لفاشل مثلي فلست الشيخ الشاذلي ولست ملكا ولست بطلا إغريقيا، لست محور هذا العالم ولست أنت كذلك ولإن صادف أن قرأ أحد العاقلين هذه الرسالة فسيسخر منها قبل كاتبها. هي الحقيقة، معظم الأفراد في هذا العالم لا يغيرون من هذا الكون شيئا سواء عليهم أماتوا أم كانوا من الأحياء. إنها سنة كونية وناموس لا يتغير. وهي الحقيقة التي ينبغي علي التسليم بها، وقد سلمت.. هكذا هو نوع البشر مثلي يا هدير، يتولد داخله شعور زائف في معظم الأحيان يقود حياته لحيث ما كتب الله لها أن تستقر. أو تعلمين؟ أتمنى في لحظتي هذه أن يعود الزمن للوراء فأصلح ما أفسدته عن جهل مني أنا الأحمق الذي لم يتعلم من تجاربه أبدا. سأتقبل قولك أننا كنا صغارا على شيء اسمه زواج. وسأفهم ما يعنيه محمد حينما يخبرني أن الحب ليس الشيء الوحيد الذي تبنى عليه الأسرة.. سأدرس بشكل جيد، ولن أشرب الخمر وسأكون المسؤول عن نعاجي لا غيري وسأزور أمي وأختي كلما سنحت لي الفرصة.. سأكون رجلا بحق، سأكون صالحا.. فقط ليعد الزمن للوراء.. لكن هيهات هيهات. لن يفعل. لن تعود الحياة للوراء لأجلي أنا الرجل الذي ضيعها هباءا بسبب حب فتاة لم يحادثها عما يختلج داخله تجاهها طوال حياته ساعة من نهار. أنا شخص بائس ياهدير وبائس وأكره ما أكره نفسي وأحب ما أحب أنت ولاعلاقة لك بكل ما حدث معي ولإن كتب الله لك أن تقرئي كلماتي هذه يوما ما وكنت صاحبة قلب طيب فلمتِ نفسك.. لا تفعلي، أرجوك لا تفعلي! لأن هذه الكلمات

لاتستحق أن تذرفي دمعا لأجلها. لأنه لا معنى من كل هذا، ولا أصل لهذه التفاهات التي أخطها بيميني. أنت تفهمين جيدا ما أعنيه، فلا ماض ولاحاضر ولا مستقبل ولا غاية لهذه الرسالة، إنها مهزلة يا هدير، صدقيني، أنا سجين للأبد ولإن أخرجني أولاد الكلب من زنزانتي فسأهرع إليها لتكون مسكني الأخير، هذا مكاني ولأجله خلقت. وهذا مستقر ومستودع حياة كتبها الله لي قبل النشأة الأولى، فكانت أمرا مقضيا.

وهكذا يا عزيزتي، يكون منتهى ذلك المأساوي مراد، كمن أصابه ذهول أو شيء من خرف أو جنون أو كالذي فقد سبيل عودته من الماضي، يكتب ترهات سخيفة بين دفتي دفتر بائس ويرسلها أكوام أوراق داخل قوارير بلاستيكية عن طريق البحر آملا أن تتجمع بمعجزة بين يدي فتاة توفيت عند موقف سيارات منذ زمن بعيد جدا.. حبيبة أخذتها المنية من سنواتها الأولى.. طال بها الزمن بباطن الأرض حتى صيرها التراب ترابا.. فعادت كأنْ لّم تخلق من قبل أبدا.. وصار اسمها بهذه الدار غريبا عن سواي كأنْ مّا من دليل على وجودها يوما بها.. كأن حينا من الدهر عليها قد أتى.. لم تعد شيئا مذكورا..''

تمت.

لإبداء آرائكم حول هذا الأثر المتواضع، يمكنكم الإتصال بنا على:

رقم الهاتف: 58161877

البريد الإلكتروني: salhytaha293@gmail.com